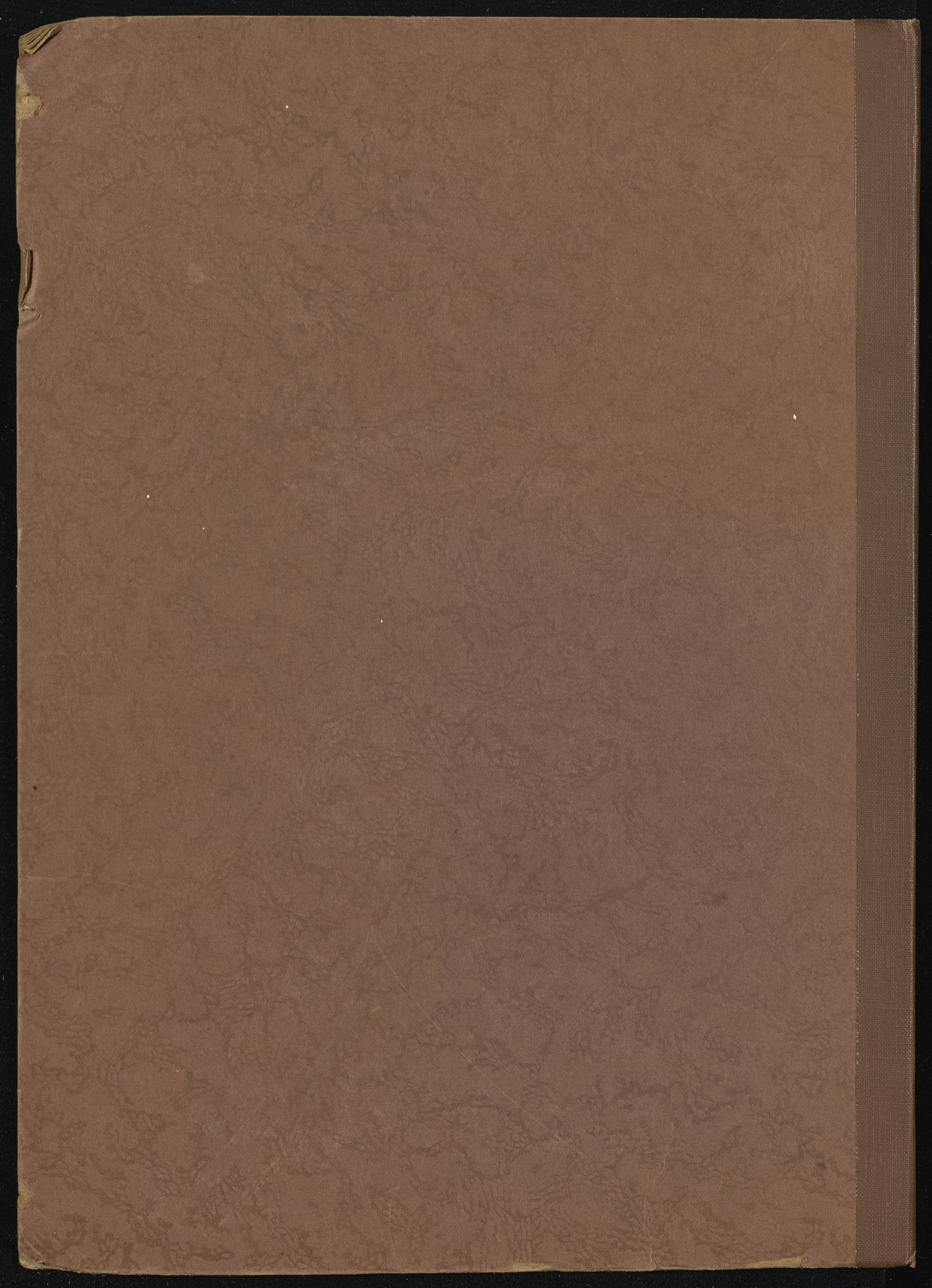
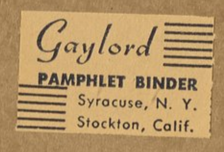
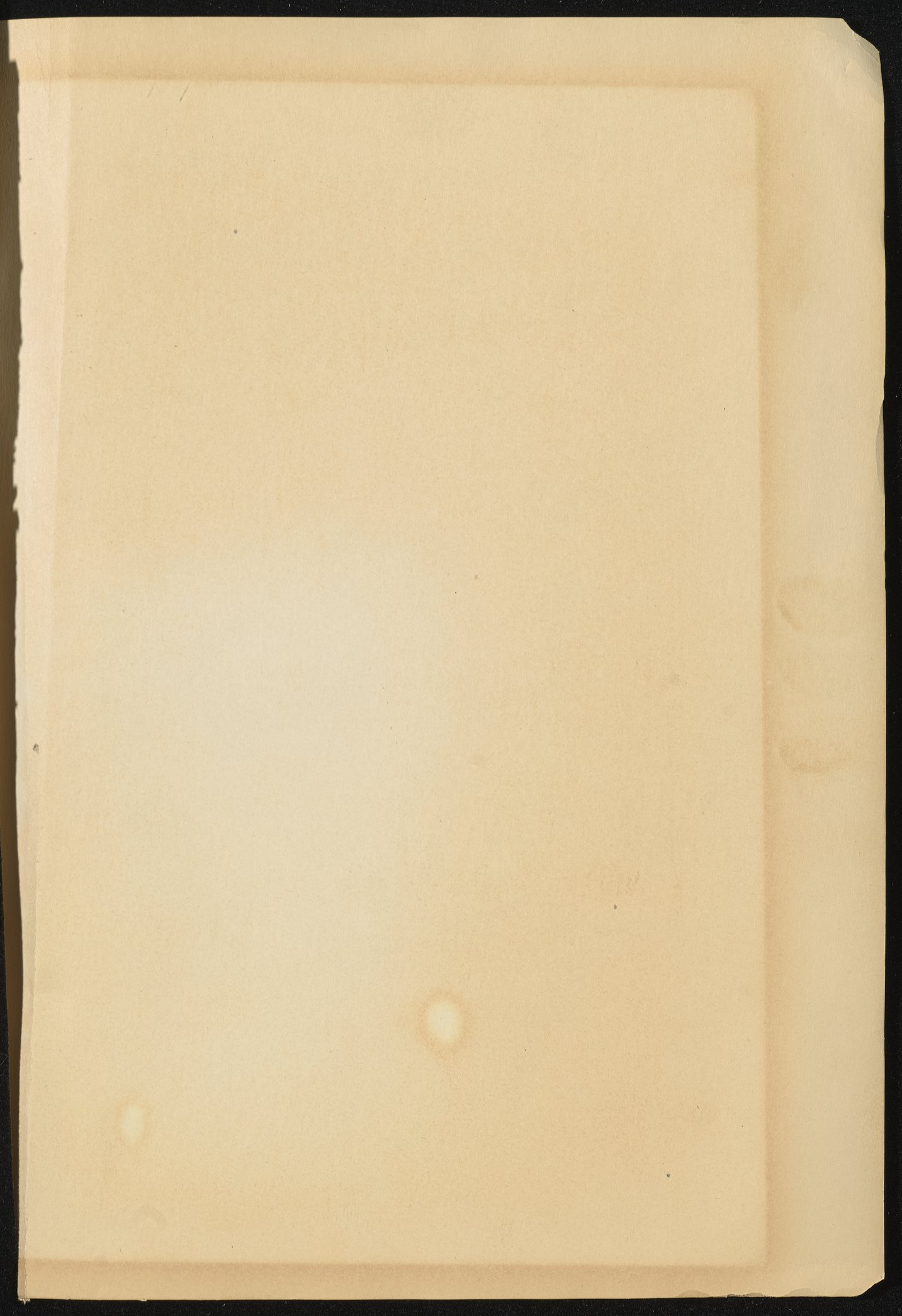



Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.


SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN





تاريخ الأدب العربي

بمصر والشام

على عهدى المماليك والعثمانيين

تأليف

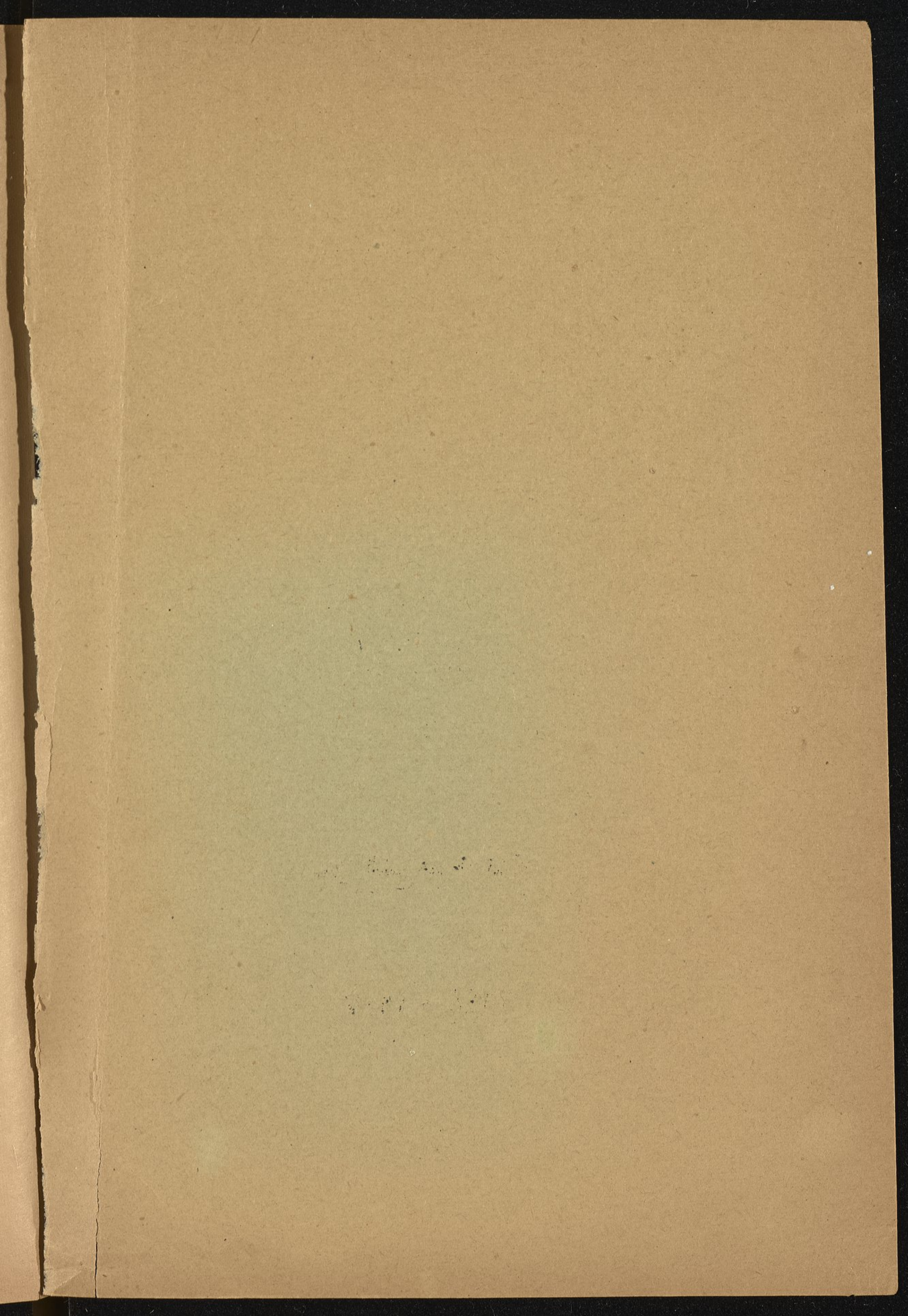
السباعي بيومي

وكيل كلية دار العلوم - جامعة فؤاد الأول

وأستاذ تاريخ الأدب

١٩٤٧ - ١٩٤٨

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٢



تاريخ الأدب العربي

بمصر والشام
على عهدي المماليك والعثمانيين

تأليف

السباعي بيومي

وكيل كلية دار العلوم - جامعة فؤاد الأول
وأستاذ تاريخ الأدب

١٩٤٧ - ١٩٤٨

مطبعة العلوم بشارع الخليج ١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

أولا ـ المماليك

من ٦٤٨ — ٩٢٣ هـ

تمهيد

اقتنى الملك الصالح أيوب أيام حكمه الذى مكث عشر سنوات عددا كبيرا من المماليك الأتراك بطريق الشراء أو السبي ودربهم على فنون الحرب والقتال ليكونوا له عدة وعليه حرسا وأنزلهم جزيرة الروضة بين البحرين بمصر فعرفوا باسم المماليك البحرية أيضا. وحين أغضبهم ابنه توران شاه بعد وقعة المنصورة التى كانت ضد الفرنجة الصليبيين سنة ٦٤٨ قتلوه وولوا سلطنة مصر أتابك العساكر إذ ذاك وهو أيبك التركمانى بلقب المعز فتأسست به فى هذه السنة دولة المماليك الأتراك أو المماليك البحرية بمصر والشام، وكان قد تزوج من الملكة شجرة الدر زوجة سيده الملك الصالح على أن تكون ملكة ولكن لم يرض الخليفة العباسى بتولية الملك امرأة فتولاه هو ويقول بعض المؤرخين إنها كانت ذات يد فى قتل توران شاه ابن زوجها. ولعل هذه الخيانة كانت سببا فى أن قتلت زوجها عز الدين ليقتلها ابنه نور الدين على، الذى تولى الملك بعده باسم الملك المنصور سنة ٦٥٥، ولما خرب التتار بغداد على يد هولاكو بعد قتل الخليفة المستعصم وإزالة الدولة العباسية سنة ٦٥٦

وانحدروا غربا إلى بلاد الشام ، فكر المصريون فى صد هذه الغارة وكان نائب السلطنة حينذاك الأمير سيف الدين قطز ذو الخلق الصعب والبأس الشديد ، فرأوا لصغر الملك المنصور وحداثة سنه وطيشه أن يسلطنوا عليهم الأمير قطز باسم الملك المظفر سنة ٦٥٧ ، وتحت إمرته توجهت الجيوش المصرية إلى الشام فانتصر على التتار وأزال بقية ملك بنى أيوب بشرق الجزيرة وولى على البلاد الشامية من ولى ، ولما كان الأمير بيبرس البندقدارى وهو من كبار قواده لم يحصل على نيابة حلب كما كان يرجو من المظفر تآمر عليه مع جمع من الأمراء وقتله عند بلدة القرين من إقليم الشرقية وتولى الملك بعده باسم الظاهر سنة ٦٥٨ ، وهو وان كان الرابع من سلاطين المماليك إلا أنه يعتبر المؤسس لهذه الدولة لأنه بقى فى الملك ١٨ سنة نظم فيها الجيش وأعاد إنشاء البحرية المصرية وأصلح الثغور والحصون وأنشأ بريد الخيل والحمام وعنى بحفر الترع وتقوية الجسور وبناء القناطر واعترف فى الشام بنظام الحكام المحليين ، ودأب فى إنشاء المساجد والمعاهد وأعاد فتح الجامع الأزهر بعد أن مكث مغلقا نحو القرن منذ أن أغلقه صلاح الدين وأقام الخلافة العباسية بمصر فبقيت إلى أن زالت دولة المماليك بدخول العثمانيين مصر سنة ٩٢٣ ، وجد فى محاربة الصليبيين والتتار وأدخل بلاد النوبة تحت طاعة مصر إلى غير ذلك مما جعل لمصر مركزاً ممتازا فى أنحاء العالم ، وجعل الملوك شرقا وغربا يتقربون إلى مصادقته ثم توفى سنة ٦٧٦ ، وتسلسل الملك من بعده فى هؤلاء المماليك البحرية إلى أن كان آخرهم الملك الصالح أمير حاج بن الملك الأشرف شعبان آخر من

ملك من أحفاد الملك سيف الدين قلاوون . وعلى أن المماليك لم يكونوا يعنون بالوراثة فى الملك — وإنما كان يتولاه أشدهم بأسا وأكثرهم جندا — فقد بقى ملك هذه الدولة الذى لم يتجاوز القرن الثالث إلا قليلا، فى أسرة قلاوون أكثر من قرن شغل منه مؤسسها سيف الدين قلاوون ١٢ سنة وابنه الملك الناصر محمد ٤٢ سنة خلاف ست سنوات خلعها دفعتين ، وباقى القرن وهو أقل من نصفه توزع بين ١٨ ملكا خلاف هذين اللذين يعتبران بحق أعظم المماليك البحرية بعد بيبرس ، فسيف الدين قلاوون عنى عناية بالغة بالاصلاحات الداخلية وصد الغارات الخارجية ولا سيما المغول ، وأنشأ كثيرا من المؤسسات الخارجية خلاف المساجد ، ومن أبقاها أثرا مستشفاه المجاور لمسجده والمكتبة التى كانت بقبة هذا المسجد ثم المدرسة التى عين فيها علماء من المذاهب الأربعة لتدريس الدين ، وألحق بها مكتبا للأطفال وملجأ للأيتام ؛ وابنه الناصر — ولا سيما فى مدته الثالثة — حذا حذوه فى أمثال هذه الأعمال خارجا وداخلا . فمن أعماله الخارجية صد الغارات وتوطيد الأمن بالشام ومساعدة امبراطور الهند ضد المغول ومحالفة قيصر الروم ، ومن الداخلية الاكثار من إنشاء المساجد والمدارس والصهاريج والحمامات بمصر والشام وإقامة القصور الشاهقة بالقلعة وخارجها وحفر ترعة من فوة إلى الاسكندرية لتكون طريقا مائيا للتجارة بين البحرين الأحمر والأبيض فضلا عن منفعتها للرى وسقيا الناس ، ثم القضاء على كثير من إقطاعات الأمراء للتوسعة على الأهلين والاكثار فى دخل الحكومة ، ومن ثم تهيأ له إبطال الضرائب المرهقة والجبايات الظالمة .

هذا ولما كان المنصور قلاوون قد اقتنى لنفسه من المماليك الشراكسة عددا وافرا وأسكنهم بروج القلعة ليكونوا حماة له من المماليك الأتراك وحاكاه فى ذلك ابنه الناصر وزاد، فقد تكونت فئة جديدة من هؤلاء عرفوا بالمماليك الشراكسة أو المماليك البرجية وأخذت سطوتهم تشتد ونفوذهم يتسع حتى صاروا فى أخريات الأسرة القلاوونية هم الحاكمين فتطلعوا إلى الملك رسما كما كان لهم فعلا ، وتم هذا على يد أولهم سيف الدين برقوق الذى أخذ الملك من الملك الصالح الآنف الذكر سنة ٧٨٤ وتلقب بالملك الظاهر وبالرغم من خلعه بعد سبع سنوات وإعادة الملك الصالح المذكور بلقب المنصور - على غير عادة فى تغيير اللقب حين الاعادة - فقد تمكن من العودة إلى الملك سنة ٧٩١ ومكث عشر سنوات وحين وفاته سنة ٨٠١ تولى بعده ابنه فرج بلقب الناصر، ومن غريب الاتفاق أنه خلع بعد سبع سنوات كما حدث لأبيه ثم عاد كما عاد أبوه بعد حكم أخيه المنصور شهرين وأياما ، فمكث هذه المرة ١٤ سنة، ثم ضيق عليه حتى فر إلى الشام، فولى السلطنة - وهذا من الغريب - الخليفة العباسى المستعين بالله ولم يمكث سوى ستة شهور ثم خلع وتولى المؤيد شيخ سنة ٨١٥ فمكث عشر سنوات وتتابع من بعده ملوك هذه الدولة إلى أن بلغ عددهم ٢٣ ، وكان أشهر هؤلاء الباقين وأطولهم مدة الأشرف برسباى وحكم ١٦ سنة والظاهر جمقق وحكم ١٥ سنة والأشرف قايتباى وحكم ٢٩ سنة ثم الأشرف قانصوه الغورى وحكم ١٦ سنة وقتل فى موقعة مرج دابق بالشام على يد السلطان سليم الذى توجه بعد ذلك إلى مصر فملكها من الأشرف

طومان باى سنة ٩٢٣ بعد وقعة الريدانية شرق القاهرة وبها زال استقلال مصر ثم زالت الخلافة العباسية بها حين تنازل عنها المتوكل العباسى للسلطان سليم الذى أخذه إلى الاستانة .

من ذلك يفهم أن ستة من ملوك هذه الدولة حكموا أكثر من قرن والسبعة عشر لم يبلغ حكمهم ثلث القرن . نعنى بهؤلاء الستة، الظاهر برقوق مؤسس الدولة وذا الآثار الخالدة بها من مساجد ومدافن ومدارس ، وابنه الناصر فرج الذى صد غارات تيمورلنك عن الشام، والمؤيد شيخ الذى استرد الشام بعد أن ملكه التتار، وتوغلت جيوشه إلى أواسط أسيا وأوجد النظام الثابت للجيش وهو صاحب الجامع المسمى باسمه بجوار باب زويلة الآن ، والأشرف برسباى الذى وطد الأمن بحال لم تعهد مثلها فى مصر والشام وهو فاتح جزيرة قبرص التى بقيت خاضعة لمصر منذ عهده إلى دخول العثمانيين، ثم الأشرف قايتباى أطول ملوك هذه الدولة مدة وأكثرهم آثارا من مساجد ومدافن ومدارس وغير ذلك مما لم يناظره فيه إلا الملك الناصر قبله من آل قلاوون، أما الغورى فيذكر له من الأعمال خروجه إلى الشام لدفع غارة العثمانيين دفاعا عن استقلال مصر وان لم يتوج خروجه بالانتصار، ويخلد له من الآثار مسجده وقبته وهما من خيرة مساجد القاهرة ومدارسها ، وهما قائمان بحى الغورية المنسوب له إلى الآن .

الحالة العامة

من سياسية ودينية واجتماعية

عرفت عن الحالة السياسية فيما سبق بالتمهيد، أن المماليك الذين حكموا مصر والشام من ٦٤٨ — ٩٢٣ هـ كانوا فئتين ، فئة المماليك الأتراك أو البحرية وقد دام حكمهم إلى سنة ٧٨٤ ، وفئة المماليك الشراكسة أو البرجية وقد بقوا إلى آخر العهد ، كما عرفت أن الملك فيهما لم يكن وراثيا، اللهم إلا ماوقع بغير تنظيم من استمراره فى الأسرة القلاوونية أكثر من قرن ، وبقى أن تعرف أن قاعدة الملك كانت القاهرة لادمشق، وأن دمشق لم تكن القاعدة التى يقيم فيها للشام حاكم عام واحد وإنما كانت تشركها فى ذلك عدة قواعد أخرى كطرابلس وحلب وغيرهما، فالشام إذن لم تكن موحدة الادارة ، ومن ثم لم يوجد من أبنائها طوال هذا العهد من يطلب حكمها لنفسها ، ولعل مما ساعد على ذلك أيضا أنها مليئة بالعشائر المتنافسة المتناحرة وأنها كانت فى العصر الذى نتكلم عنه مسرحا للحروب الصليبية أولا ولأغارات التتار ثانيا ؛ وقد اجتمعتا عليها أواسط هذا العصر ؛ وما كادت مصر تخلصها منهما حتى وجد غاز جديد أخذها من مصر وأخذ مصر نفسها هو الأتراك العثمانيون .

والحالة الدينية كانت ذات مظاهر شتى فى هذا العصر نذكر منها ما يأتي : —

١ — تأسيس الخلافة العباسية بمصر بعد سقوطها فى بغداد سنة ٦٥٦ ، وذلك أن الظاهر بيبرس دعا سنة ٦٥٩ الأمام أحمد بن الخليفة العباسى

الظاهر بأمر الله وبايعه هو ورجال الدين وأهل الحل والعقد بالخلافة مع تلقيبه بلقب المستنصر واستمد منه سلطنة الملك بصفته نائبا عنه ، ثم أرسله على رأس جيش كبير لقتال التتار واسترداد بغداد على أمل إعادة الخلافة إليها ولكنه هزم فى الأنبار ولم يعلم له مصير بعد ذلك ويغلب أنه مات ، فاستدعى الظاهر سنة ٦٦٠ الامام أحمد بن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد وبايعه بالخلافة واستمد منه السلطنة كما فعل مع المستنصر وهذا هو جد الخلفاء العباسيين الذين تسلسلوا أربعة عشر بمصر وكان آخرهم المتوكل على الله الذى تنازل عن الخلافة للسلطان سليم حين دخل مصر سنة ٩٢٣ . وقد استفادت مصر من إقامة الخلافة العباسية بها دينيا وأدبيا وسياسيا وتجاريا ، فقد بقى كثير من ملوك المسلمين فى العالم إذ ذاك يطلبون من الخليفة العباسى بمصر الاعتراف منه بتقلدهم مناصبهم والاعتراف بمصر زعيمة دينية لهم يكنون لها التقديس والاحترام ويبذلون فى سبيل مساعدتها ما فى مكنتهم أن يبذلوه .

٢ — جرى الظاهر بيبرس أيضا على مصادقة حكام النصارى فى أوربا ، وأحسن معاملة مسيحى المشرق بعد انتصاره على الصليبيين منهم فى الشام ، حتى تمكن بهذه المصادقة أن يؤسس قيصر الروم بالأستانة مسجدا للمسلمين هناك ، وقد جرى المماليك بعده على هذه السنة فى معاملة المسيحيين إلا فى بعض فترات كان بعضهم يشتد عليهم فيها كما حدث أيام الناصر بن قلاوون حين قسا عليهم كما قسا على اليهود .

٣ — اتسع نفوذ الدولة على المسيحيين وذلك بضم بعض أملاكهم

إلى مصر، فقد حدث أن الظاهر بيبرس أخضع بلاد النوبة لمصر ولكنه تركهم على مسيحيتهم مكتفيا منهم بالجزية كما تقضى أحكام الدين، وكذلك فعل الأشرف بارسباى، فقد افتتح جزيرة قبرص وأحضر ملكها أسيرا إلى مصر ثم أطلقه على أن يدفع الجزية فدفعها وبقيت هذه الجزيرة تابعة لمصر إلى أن أخذها العثمانيون بحكم فتحهم لها سنة ٩٢٣ م.

٤ — مظاهرة المذهب السنى ومطاردة الشيعى ولكن بغير الشدة التى كان عليها فى ذلك الأيوبيون، ولهذا أعاد بيبرس فتح الجامع الأزهر مع تحريم دراسة المذهب الشيعى فيه، وعمل على إحضار زعماء الاسماعيلية من الشام إلى مصر برفق ليكونوا تحت بصره وسمعه مع إقطاعهم ما يكفل لهم رغد العيش من الأرضين، ثم الاعتراف لهم بزعيم يقيمونه عليهم يعرف باسم نقيب الأشراف ولا يزال هذا التقليد جاريا إلى الآن.

٥ — شغفهم جميعا بانشاء المساجد الضخمة والمشاهد العظيمة، ولا سيما بحاضرة الملك والقرافة، حتى لا يكاد يوجد مسجد فيهما إلا للماليك، هذا كان ديدنهم منذ الظاهر أولهم إلى السلطان الغورى آخرهم، على أن بعضهم أنشأ أكثر من مسجد كالناصر بن قلاوون من البحرية والأشرف قايتباى من البرجية وغيرهما كثير، ونزيد هنا استخدام هذه المساجد مع العبادة للتعليم، وقد كان لهم جميعا شأن أى شأن فى تأسيس المدارس الخاصة العظيمة كما سترى بعد.

٦ — تعلقهم الشديد بالأرض المقدسة أرض الحجاز وعنايتهم أيما

عناية بالحرمين الشريفين فيها وقيامهم بمعونات أهل الحجاز عناية تفوق التقدير ، مع ضنهم على الغير من سائر ملوك الاسلام أن يستأثروا بذلك أو أن يساعدوهم فيه إلى درجة أن توترت العلاقات بينهم وبين ملوك الفرس من الصفويين حين أراد هؤلاء أن يتقدموا بكسوة الكعبة فى بعض الأعوام .

أما الحالة الاجتماعية فقد كانت ذات مظاهر شتى متغلغلة فى كثير من نواحى الحياة ، وهذى طائفة من تلكم المظاهر على سبيل الأجمال .

١ — ترفعهم عن الشعب وعدم اختلاطهم به حتى فى أرقى طبقاته ، ترى ذلك فى ابتعادهم عن ميادين ثقافته الدينية واللغوية والكونية ، إلى تعليم لهم خاص لا يكاد يجاوز فنون الحرب وسياسة الملك وما يتصل بهما مما يرون فيه الأبقاء على كيانهم والاعداد لمهمتهم ؛ وتراه فى عدم الاصهار إلى غيرهم فنساؤهم من بنات جنسهم حرائر أو سبايا . وقل أن تجد فيهم من خالف ذلك إلى التزوج من بعض بنات الشعب فى أرقى الطبقات ؛ وكذلك كان شأنهم فى عدم التزوج من المسيحيات — على إباحة الشرع له — إلا فى النادر القريب من المعدوم .

٢ — انقسامهم أحزابا وشيعا يعادى بعضهم بعضا سرا وعلنا ، وقد كان منشأ ذلك فيهم التطلع إلى الملك القريب من كل ذى قوة وبطش أيا كان أصله ، والبعيد عن أن تكون له وراثة ذات نظام ، ويتصل بهذا تعلقهم بمواليهم وتعلق مواليهم بهم ، ما كان وراء ذلك مطمع فى مال أو سلطان ، فاذا تعارض هذا التعلق وذاك المطمع ، رأيت الغدر

والخيانة والدس والنذالة والغصب والابتزاز فى أشنع صورة وأبشع منظر، حتى لتكاد ترى نفسك فى مجتمع وحوش ضاريات، متقصمة فوق وحشيتها المادية، خبث الأبالسة وانحطاط الشياطين، ولهذا الذى نقول مثل بارزة فى كلتا دولتيهما من أتراك وجراكسة وفيما كان بينهما بعد أن خلف الآخرون الأولين .

٣ — شدة عسفهم بقبائل العرب فى مصر وعرب العشائر بالشام، لما كان عليه هؤلاء وهؤلاء من كثرة الأغارة على المدن للسلب والنهب وتعكير صفو السلام على الآمنين من السكان، فى عصابات ذوات عدد تغير كما تغير الجيوش ولا ترتد إلى السلم إلا بجموع تفوقها عددا وتعلوها قوة كان يجردها سلاطين المماليك من حواشيهم وجنودهم تحت إمرة قواد منهم ، فاذا ما ظفروا بالعابثين — وكثيرا ما كانوا يظفرون — عادوا منهم بأسرى الرجال وسبايا النساء ليفترشوا هؤلاء أو يبيعوهن فى الأسواق، وليقتلوا أولئك ممثلين بزعمائهم أشنع تمثيل أو يبقوا عليهم إن أبقوا عبيد عمل وأحلاف سجون ، مسوقين إلى ذلك بحكم الانتقام الشخصى والاعتزاز العنصرى . ولعل هذه الظاهرة كانت من أهم الأسباب فى خضوع المصريين لهم على قلتهم وعزلتهم وفى خضوع الشام لمصر موطن هذا الانتقام والاعتزاز ، ومن ثم بقى المماليك ذوى شخصية بارزة حتى بعد زوال ملكهم على أيدى آل عثمان ، فانهم بعد أن سلخ هؤلاء الشام عن مصر ، بقوا فى الأخيرة الحكام الحقيقيين كما سترى، بعد حيث الكلام على عهد العثمانيين .

٤ — التسابق إلى اقتناء الثروات والتكاثر فى إنشاء القصور، والبذخ

فى الأنفاق ، وقد ساعدهم على ذلك ما كان لهم فى أنحاء مصر من إقطاعات ، وما كانت تدره عليهم المتاجر من أرباح ، وما كان يغمر الدولة من جباية الضرائب ومكوس التجارة وبخاصة الخارجية منها إلى درجة تفوق حد الحصر ، كل هذا مكن لهم فى إقامة العمائر واقتناء النفائس والتمتع بكل أنواع المتع إلى حد الاسراف والتبذير ، دون أن ينال ذلك من ثروة ذوى الثراء منهم فى كثير ولا قليل ، ومن ثم كثر أصحاب الثروات وصواحباتها إلى درجة تستلفت النظر وتستغرق الحديث حتى صار استصفاء الحكومة لبعض الثروات إذا نضب معين الخزانة ضربا من ضروب الايراد ، كما صار سببا فى إثراء ذوى الخصومة إذا كان من حظهم الانتصار ، حيث يضع الغالب يده على كل ما للمغلوب من أموال ومماليك بل من حرائر وزوجات .

٥ — جرى الخير على أيديهم إلى كثير من الطوائف وعامة الناس ، مستعينين على ذلك بكثرة أموالهم ومدفوعين اليه إما دينيا بما يؤسسون من مساجد وملاجىء ومستشفيات وغيرها من مؤسسات الخير التى أكثروا منها وعملوا على إبقائها بحبس بعض العقار عليها ، وإما اجتماعيا بما يقفون من أموالهم على مثل هذه المؤسسات خوفا على تلك الأموال من التعرض للاستصفاء فى حياتهم أو الغصب من ذريتهم بعد مماتهم ، ولهذا كثر الوقف الخيرى على عهد هذه الدولة ملوكا وغير ملوك ، كما وجد لهم بعض الوقف الأهلى خوفا على ورثتهم أن يتعرضوا لنهب ثروتهم منهم والوقوع فى حبائل العوز والأملاق .

٦ — ومما يذكر كمظهر من المظاهر الاجتماعية هنا وإن كان ذا

مساس بالناحيتين الدينية والسياسية معا ، الحروب الصليبية وإغارة التتار ، فقد ورث المماليك عن الأيوبيين تلك الحروب باقية بالشام ومهددة مصر ، فشغلوا بها أكثر ماشغلوا أيام دولتهم الأولى كما تعرضوا منذ تلك الدولة وأيام الثانية لاغارة التتار الذين خربوا بغداد وعاثوا فسادا فى الشام وحاولوا ـ ولا سيما على عهد تيمورلنك بعد هولاكو وجنكيز ـ أن يفتتحوا مصر فيقضوا بامتلاكها على الخلافة العباسية التى أقيمت فيها بعد إزالتهم لها من بغداد ، ولكن الله نصر المماليك عليهم وحفظ مصر منهم ثم هدى كثيرا من خلفائهم إلى الاسلام فتجردوا من العصبية المتمردة التى كانت أبرز سمة لأسلافهم الأولين وخفت بذلك حدتهم وقل أو انعدم شرهم .

٧ — على أن المماليك لم يكادوا يأمنون شر هذه الناحية ويطمئنون إلى السلام والهدوء فى مصر والشام ، حتى كان للأتراك العثمانيين شأن كبير فى سماء الوجود وتطلعوا إلى بسط نفوذهم على الشام ومصر كما بسطوه على غيرهما من الأقاليم ، ولا نخفى أن مماليك مصر الشراكسة فى آخر عهدهم لم يحسنوا السياسة مع الدولة العثمانية ، فلم يعملوا على ملاينتها حيث وجبت الملاينة ولا على مخاشنتها حيث كانت تجدى قبل ذلك المخاشنة ـ ذلك بانهم لم يمدوا يدهم الى الشاه إسماعيل حينما كان يحارب العثمانيين حتى يضمنوا له النصر عليهم فيضمنوا أن يكون حليفهم ضدهم إذا بقيت لهم قوة وهاجموهم ، وانما تركوه حتى انتصروا عليه وأصبحوا فى مأمن منه إذا توجهوا غربا ـ ثم حين بدا لهم أن العثمانيين ذوو طمع فى ديارهم عملوا على زيادة البغضاء فى نفوسهم عليهم فكانوا

يؤيدون طرداءهم من أسرتهم وغير أسرتهم وكانوا يغلظون لهم فى الاجابة إذا سألوهم ، ومن ثم لم يجد السلطان سليم الأول بدا من محاربة الشام فى سبيل الذهاب الى مصر ، فجهز جيشا وقابله الغورى بمثله فى مرج دابق بالشام وما هى الا ساعة من نهار ووقعة من قتال حتى قتل الغورى ولم يهتد له على جثمان واندفعت الجيوش العثمانية الى مصر لا تلوى على شىء ولا تجد مقاوما حتى صارت بالريدانية الى الشرق من القاهرة - وهى مكان العباسية الآن - واذا بالأشرف طومان باى يلاقيها فى غير عدد كاف ولا عدة وافية الا ما كان بين جنبيه من إخلاص وقوة ايمان، وماذا يغنى ذلك أمام الجيوش القاهرة الحاقدة ولا بعض الغناء ، فانهزم أمامها وفر عابرا النيل الى الجيزة ولكن قبض عليه هناك وقيد الى السلطان سليم فقتله وعلق جثمانه على باب زويلة ثلاثة أيام ، وبهذا دالت دولة المماليك وأصبحت مصر ولاية تابعة لآل عثمان كما صارت الشام .

وبعد فتلك كلمات أسلفناها فى التمهيد وما تلاه عن دولة المماليك بمصر والشام، كيف قامت وما كان شأنها السياسى ثم ما كانت عليه الحالة العامة بمصر والشام أيام حكمها سياسيا ودينيا واجتماعيا ، لما لذلك كله من مساس كبير بما نحن بصدد التصدى له من الكلام على الحياة الثقافية بهما أيامها من علمية وأدبية ان شاء الله .

الحياة الثقافية

تعرض العالم الاسلامى منذ أن انتصف القرن السابع الهجرى أى حيث تأسست دولة المماليك بمصر وحكمت معها الشام كما كانت الحال عهدى الفاطميين والأيوبيين من قبل - لمحن وكوارث فى شرقه وغربه زعزعت من كيانه وهدت من بنيانه. ثم استمرت عهد المماليك كله تزداد عنفا وقسوة، وتضيف إلى تأثيرها فى حاله السياسية تأثيرا ثقافيا أشد وأنكى - ذلك بأن التتار مذ خربوا بغداد حين أسقطوا الدولة العباسية بالمشرق سنة ٦٥٦ — وهم غزاة أجلاف - جثموا على صدر هذا المشرق، يقضون على معارفه ويحرقون من كتبه ويشردون من علمائه محاولين بذلك كله أن يطمسوا نور إيمانه وإسلامه ثم زحفوا غربا طمعا فى امتلاك شامه ومصره. ولولا أن وقف فى طريقهم المماليك بالشام وقفات كثيرات كانت تردهم عنها وتحفظ بذلك مصر لضاع هذان القطران ووقعا كما وقع الشرق فى أيديهم، وذلك بأن عرب أسبانيا كان قد وقع بأسهم بينهم وتفرقوا بتفرق كلمتهم إلى طوائف يقاتل بعضها بعضا، فهب القوط أهلها الأصليون يستخلصونها من أيديهم جزءا جزءا ويزحفون على تلك الدويلات، بمساعدة الفرنجة سكان شمال أسبانيا من ذلك الشمال إلى هذه الدويلات، فيقضون عليها الواحدة تلو الأخرى حتى لم يبق فى أيدى العرب إلا دويلة بنى الأحمر بغرناطة جنوب الأندلس ثم كان أن سقطت هذه فى أيديهم سنة ٨٩٧، أى بعد سقوط المماليك فى مصر ووقوعها مع الشام فى قبضة الخلفاء العثمانيين بثلاثة أرباع القرن حيث كان التتار قد اعتنقوا الاسلام وزال

ملكهم فى المشرق بظهور دولة الصفويين . وقد كانت نكاية هؤلاء الفرنجة بعرب الأندلس فى دينهم وفى جميع نواحى ثقافتهم ذات التنوع والشمول فى هذا الغرب أشد وأعمق من نكاية التتار بالشرق. ولهذا وذاك كثرت الهجرة من المغرب والمشرق إلى مصر والشام مهد المماليك وموطن الأمان والسلام طيلة هذه القرون الثلاثة التى لم يصب العالم الاسلامى بمثل ما أصيب به فيها لا من قبل ولا من بعد ؛ ولهذا حل على المماليك فى جميع نواحى ملكهم أفذاذ من العلماء والفنيين وسائر رجال الثقافة ، فعجت بهم القاهرة ودمشق وكثير من أمهات المدن بمصر والشام ، وأخذت تهتدى بما حملوه اليها من أنوار العلوم والفنون فتقوت بذلك ثقافتها وتغذت بألوان أخرى كانت طابع الثقافتين الشرقية والغربية حتى غدت كالرحيق الذى تجمعه النحل من شتى الثمار والأزاهير فيحلو فى الأفواه جناه ويطيب فى العرانين شذاه ويحسن تقبله فى هذه الديار من رجال العلم والفن على تشجيع من أولى الأمر فيهم سلاطين وحكاما طوال حكم المماليك الذى كان زمنه مسرحا لتلك الأحداث والذى لولاه لقضت هذه على التراث الاسلامى جميعه القضاء الأخير ، فالمماليك بحق كانوا الحفظة على الثقافة الاسلامية التى سنتكلم عنها هنا فى جميع نواحيها من علمية ؛ دينية ولغوية وكونية ؛ ومن أدبية ؛ كتابية وشعرية ، على أن نتوخى فى الأولى الاجمال وفى الثانية بعض التفصيل إن شاء الله .

الثقافة العلمية

حمل المماليك لواء الثقافة العربية فى شتى مظاهرها ثلاثة قرون غربت فيها شمس تلك الثقافة بمشرق الدولة وكادت تغرب فى مغربها ، فآزروا الناحية العلمية ولم يقفوا فى طريق الأدبية ، مدفوعين إلى تلك المؤازرة بالعامل الدينى لما له فى قلوبهم من مكان ولما أصبح للخلافة العباسية بمصر على هذه الناحية من سلطان ، أما الناحية الأدبية فلم يقفوا فى طريقها لما بين اللغة العربية والدين من رباط ، ولحاجة الملك إلى أسمى مظهر لها وهو الكتابة فى الدواوين وبخاصة ديوان الانشاء ، وإنما آثرنا التعبير هنا بعدم الوقوف ، على التشجيع لأن التشجيع للأدب لايكون إلا من ذوى المعرفة به والتذوق له ، وما كان أحد من هؤلاء على شيء من تلك المعرفة بله التذوق ، على عكس ما كان عليه الأمر أيام آل فاطمة العرب وبنى أيوب المتعربين الذين كثر فيهم الأدباء ونبغ منهم الشعراء منذ الخليفة المعز أول الأولين إلى الملك الصالح آخر الآخرين ، ومن ثم كانت الحركة الأدبية فى هذا العهد أقل منها فى سابقه كما كانت أقل فيه نفسه من الحركة العلميه التى بقيت ذات ازدهار كما سترى حيث الكلام على نواحى كلتيهما فيما يلى من كلام .

أولا — العلوم الدينية

يراد بالعلوم الدينية الفقه وأصوله ، والحديث ومصطلحه ، والقراءات والتفسير ، والكلام ويلازمه المنطق .

١ — الفقه وأصوله

نما الفقه وأصوله فى هذا العهد نموا كبيرا . عظم من شأنه وضخم

من كتبه وكثر من رجاله ، وكان يستمد هذا النمو من عاملين كبيرين ، أولهما القضاء ومناصبه والثانى الاجتهاد وأئمته .

فأما القضاء فقد سما به أولو الأمر منذ أول العهد سموا كبيرا ، وسار خلفاؤهم من بعدهم فى ذلك سيرتهم ، وكان المذهب السنى قد رسخت قدمه أيام الأيوبيين وإن كانوا أبقوا الرياسة فى القضاء بيد الشافعية فكان يتولى منصب قاضى القضاة إمام منهم تصدر منه تولية القضاة جميعا من شافعية ومالكية وأحناف ، على أن يولى على كل من هؤلاء وهؤلاء رئيسا منهم تستمد منه ولاية القضاء ، وكان آخر من ولى رياسة القضاء كله من الشافعيين على هذا النظام تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، فلما آلت سلطنة المماليك إلى الظاهر بيبرس أقدم على تغيير ذلك سنة ٦٦٠ فجعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضى قضاة يرجع اليه فى أموره وتصدر عنه ولاية قضاته ، فكان أول قضاة الحنفية صدر الدين بن أبى العز . وأول قضاة المالكية شرف الدين عمر بن السبكى وأول قضاة الحنابلة شمس الدين الجماعيلى . وبذا قصر ابن بنت الأعز المذكور على رياسة القضاء للشافعيين .

وأما الاجتهاد وأئمته فقد كانت حركته دائبة الدوران كثيرة الانتاج ، بدت هذه الكثرة فى تأليف الكتب كما بدت فى تخريج الفقهاء ، وهذا بيان قليل من ثبت الفقهاء ذوى المكانة العلمية والآثار الكتابية على هذا العهد فى كل مذهب من المذاهب الأربعة .

فمن فقهاء الشافعية

١ — أبو زكريا محيي الدين النووى نسبة إلى نوى من قرى دمشق ،

ولد فى القرية المذكورة سنة ٦٣١ وتوفى فيها سنة ٦٧٦، وعلى قصر حياته ترك مؤلفات كثيرة وضخمة: أهمها تهذيب الأسماء واللغات وهو عبارة عن معجم تاريخى للأعلام التى وردت فى هذه الكتب من كتب الفقه «مختصر المزنى والمهذب والوسيط والوجيز والتنبيه والروضة» مضموما اليها كثير مما ليس فيها. وقد طبع بمصر وله عدة شروح ومختصرات.

٢ ــ تاج الدين السبكى ولد فى القاهرة سنة ٧٢٧ ولكنه نسب إلى قرية أبيه تقى الدين السبكى الفقيه أيضا وتوفى سنة ٧٧١. وله كتب عدة وكبيرة أهمها جمع الجوامع فى الأصول. ويعد من أمهات كتب الشافعى وطبع كثيرا، ثم طبقات الشافعية الكبرى وهى تراجم من جالسوا الشافعى من فقهاء مذهبه، ومن جاء بعدهم وقد طبعت بمصر فى ستة مجلدات.

٣ ــ ١١ ــ إلى غير هذين من الأئمة المجتهدين مثل جلال الدين أحمد المتوفى سنة ٦٧٧، شارح التنبيه وقواعد الاصول؛ وكمال الدين أبى العباس أحمد المتوفى سنة ٧٥٧، مصنف جامع المختصرات وشارحه، والكمال الدميرى المتوفى سنة ٨٠٠ شارح المنهاج والمنظومة الكبرى، وشمس الدين القاياتى المتوفى سنة ٨٥٠ دارس الفقه بالاشرفية والشيخونية وكمال الدين الخضيرى السيوطى المتوفى سنة ٨٥٥ دارس الفقه بالشيخونية وهو والد جلال الدين السيوطى صاحب التآليف الكثيرة الآتى بعد، ثم جلال الدين المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ دارس الفقه بالبرقوقية والمؤيدية، وعلم الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٦٨، حامل لواء مذهب الشافعى فى عصره،

وشرف الدين المناوى المتوفى سنة ٨٧١ شارح مختصر المزنى ، وغير هؤلاء كثير .

ومن فقهاء المالكية

١ - شرف الدين السبكى المتوفى سنة ٦٦٩، دارس الفقه بالصالحية ووالى حسبة القاهرة .

٢ - شهاب الدين القرافى المتوفى سنة ٦٨٤ صاحب كتاب الفروق فى الفقه المالكى، طبع بتونس .

٣ - تاج الدين الفاكهانى المتوفى سنة ٧٣٤ وشارح العمدة

٤ - ابن مسعود الزواوى المتوفى سنة ٧٤٣ شارح المدونة

٥ - خليل بن إسحق الجندى المتوفى سنة ٧٦٧ ، متولى التدريس فى الشيخونية وصاحب المختصر فى الفقه المالكى طبع بمصر سنة ١٣٠٩ وطبع قبلها بفاس وغيرها وله شروح كثيرة .

٦ - ابن مكين البكرى المتوفى سنة ٨٠٣ متولى التدريس بالظاهرية

ومن فقهاء الحنفية

١ - مجد الدين الحلبى المتوفى سنة ٦٧٦ - أول من درس الفقه بالظاهرية .

٢ - فخر الدين الماردينى المتوفى سنة ٧٢١ . شارح الجامع الكبير

٣ - بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ شارح الكنز والمجمع وصاحب طبقات الحنفية .

٤ - تقى الدين الشمنى المتوفى سنة ٨٧٢ - شارح النقاية وصاحب أرفق المسالك .

٥ — سيف الدين الحنفى المتوفى سنة ٨٨١ — متولى مشيخة المؤيدية والشيخونية .

ومن فقهاء الحنابلة

١ — تقى الدين بن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ أعظم علماء عهده وأشهرهم فى العلوم الاسلامية جميعها وصاحب المؤلفات الكثيرة الضخمة ومنها الفتاوى، المنسوبة إليه المطبوعة بمصر فى خمسة مجلدات ، ومجموعة الرسائل الكبرى وهى تسع وعشرون رسالة وطبعت بمصر أيضا ،وغيرهما كثير .

٢ — شمس الدين بن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ صاحب «الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية» ومفتاح دار السعادة فى التصوف وكلاها طبع بمصر وله غيرهما كثير .

٣ — برهان الدين العسقلانى المتوفى سنة ٨٠٢ — كان أعلم أهل زمانه وكان الظاهر برقوق يجله ويحترمه .

٤ — عز الدين أبو البركات المتوفى سنة ٨٧٦ — درس للحنابلة بغالب مدارس مصر .

ومما يذكر عن هذا المذهب أنه دون المذاهب الثلاثة السابقة لم تظهر له أئمة بمصر إلا منذ القرن السابع ، وذلك لأن الامام أحمد لم يعرف مذهبه خارج العراق إلا فى القرن الرابع وفيه ملك الفاطميون مصر ولم يبقوا فيها على غير مذهبهم الشيعى فلم يتسن للحنبلى أن يدخلها ؛ فلما زالت الفواطم فيها وتراجعت إليها أئمة المذاهب الثلاثة على العهد الأيوبي بعدهم — كما كانت الحال قبلهم — حل فيها المذهب الحنبلى ،

وكان أول أئمته حلولا بها الحافظ عبد الغنى المقدسى صاحب العمدة الذى أظهر هذا المذهب بمصر ودعا له وتبعه من بعده أئمة آخرون كان منهم من ذكرنا وكانت وفاته بمصر سنة ٦٠٠ .

ا — الحديث ومصطلحه

سار أئمة الحديث فى هذا العصر مسيرة أسلافهم فى العهد الأيوبى من حيث الاتجاه إلى التوسع فى المصطلحات وترتيب الشيوخ وخدمة كتب الحديث الستة — المعروفة باسم الجامع لكل من البخارى والنيسابورى والترمذى وباسم السنن لكل من القزوينى والسجستانى والنسائى وكلهم من المشارقة — بالشرح والتعليق دون أن يزيدوا فى الرواية شيئا . وهذا بعض أسمائهم ومؤلفاتهم .

١ - ابن العماد المتوفى سنة ٦٧٠ — عنى بالحديث وفنونه ورجاله وألف فيه .

٢ - ابن المهتار المتوفى سنة ٦٨٥ - قارىء الحديث بدار الحديث الأشرفية .

٣ — ابن الظاهرى المتوفى سنة ٦٩٦ كتب عن سبعمائة شيخ من رجال الحديث .

٤ — قاضى القضاة الحارثى المتوفى سنة ٧١١ — شارح سنن أبي داود .

٥ القطب الحلبي المتوفى سنة ٧٣٥ — شارح البخارى .

٦ ابن جماعة المتوفى سنة ٧٦٧ — أخذ عن ١٣٠٠ شيخ

٧ — حافظ العصر العراقى المتوفى سنة ٨٠٦ - أحيا سنة إملاء الحديث فى أكثر من ٤٠٠ مجلس .

٨ - أبو زرعة العراقى المتوفى سنة ٨٢٦ - أملى أكثر من ٦٠٠ مجلس وشرح جمع الجوامع .

٩ - ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ — أملى أكثر من الف مجلس وألف أكثر من عشرة كتب .

هذا وقد اشتهر ذلك العصر بكثرة المحدثات اللاتى تفرغن للحديث فنبغن فيه ، نذكر منهن :

١ — زينب الأسعردية المتوفاة سنة ٧٠٥ وقد تفردت فى الرواية عن أبى الزبيدى وابن عبد الواحد البخارى

٢ - ست الأكياس موفقية المصرية المتوفاة سنة ٧١٢ تفردت بأشياء عن ابن دينار وابن الصابونى وابن البيطار .

٣ — فاطمة بنت عباس المتوفاة سنة ٧١٤ وقد شهرت بالزهد والدعوة إلى الله مع اشتغالها بالحديث فصلحت بها كثيرات من نساء دمشق ونساء القاهرة .

٤ وجيهة بنت على الأنصارية المتوفاة سنة ٧٣٢ وكانت محدثة الاسكندريه غير مدافعة

٣ - القراءات والتفسير

كانت حال القراءات فى هذا العصر كحالها فى العصر الأيوبى قبله ، فلم تحدث فى كليهما زيادات على القراءات الأربع عشرة التى عرفت قبلهما للمشارقة وهى السبع لأبى عمرو والكسائى وحمزة وعاصم وابن

عامر وابن كثير ونافع ، والثلاث ليعقوب ويزيد وخلف ، والأربع لابن محيصن والأعمش والبصرى واليزيدى. وقد اشتغل بهذه القراءات كلها عدد جم من العلماء إقراء وتأليفا نذكر منهم الآتين :

١ - الكمال الضرير أبو الحسن الهاشمى المتوفى سنة ٦٦١ صاحب الشاطبي وزوج ابنته والقارىء عليه وعلى غيره من كبار القراء كشجاع المعطى وأبى الجود . تصدر للقراءة دهرا وانتهت إليه رياسة الأقراء.

٢ ـ التقى الصائغ شمس الدين المصرى المتوفى سنة ٧٢٥ قرأ على الكمال الضرير والكمال بن فارس وانفرد بالقراءة دراية ورواية حتى رحلت إليه الطلبة من أقطار الأرض .

٣ ـ فتح الدين أبو الفتح العسقلاني المتوفى سنة ٧٩٣ قرأ على التقى الصائغ وسمع منه الشاطبية وكان خاتمة أصحابه فى السماع وتكاثر عليه الناس فى الأقراء وتولى إمامة الجامع الطولونى

٤ ـ شمس الدين الجزرى المتوفى سنة ٨٣٣ وكان خاتمة أصحاب القراءات فى هذا العصر رواية ودراية كما كان أكثرهم فيه تأليفا وهو صاحب كتاب « غاية النهاية فى رجال القراءات أولى الرواية والدراية » وقد ألفه بدمشق ويقال إنه لما جاء القاهرة ووجده غاية فى الطول اختصره فى كتابه الموجود بهذا الاسم فى ستمائة صفحة ومنه نسخة خطية بدار الكتب المصرية ، وكتاب « النشر فى القراءات العشر » وهو كبير أيضا ومنه نسخة فى المكتبة المذكورة فى ألف صفحة ثم « المنظومة الجزرية فى التجويد » وهى مشهورة وطبعت بمصر أكثر من مرة

وكذلك التفسير سار فيه مفسر وهذا العصر سيرة أسلافهم فى الأيوبي فكانت طريقتهم تجريد الروايات من الأسانيد وإضافة كثير من مباحث العلوم المختلفة إلى تفسير الآيات كما فعل المشارقة أخريات العصر العباسى على حسب الهوية العلمية أو الأدبية لكل مفسر ، ومن أئمة التفسير فى هذا العصر هؤلاء الآتون :

١ — جمال الدين أبو عبد الله البلخى المقدسى المتوفى سنة ٦٩٨، أقام مدة للتفسير فى الجامع الأزهر ويقول السيوطى إنه ألف تفسيرا كبيرا إلى الغاية ، ولكنه لم يذكر اسمه ولا شيئا عنه

٢ — جمال الدين عبد الله بن علاء الدين المتوفى سنة ٧٦٩ ، وكان إمام التفسير على عهده بجامع ابن طولون

٣ — جلال الدين المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ ، كتب تفسيرا للقرآن من أول الكهف إلى آخر الناس وأراد أن يتممه فكتب على الفاتحة وعلى آيات يسيرة من أول البقرة ثم ، توفى قبل أن يتممه فبقى كذلك حتى أتمه جلال الدين السيوطى المذكور بعد بتفسير على نمطه كما قال من البقرة إلى آخر الأسراء ، ومجموع التفسيرين هو المعروف الآن بتفسير الجلالين نسبة إليهما وهو تفسير موجز محرر للغاية كثير التداول فى شتى الأقطار ولا سيما العربية والاسلامية .

٤ — جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ وهو آخر من ظهر فى هذا العصر من كبار العلماء ولكنه نبغ فى كثير من العلوم والفنون وأكثر من التأليف فيها جميعاً حتى عد أكبر رجال الموسوعات ، والذى يهمنا ذكره هنا تآليفه فى القرآن ، فله فيه تتمة الجلالين كما سبق ،

و« الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » فى سبع مجلدات كبيرة ومنه نسخة فى دار الكتب و « الاتقان فى علوم القرآن » وهو يبحث فى كل مايتصل به من مواطن نزوله وسنده وألفاظه ومعانيه إلى آخر مافهرس له فيه من شتى المباحث وهو مطبوع فى مجلدين وكثير التداول بين الناس فى شتى الاقطار.

٤ — الكلام والمنطق

لم يكن لهذين العلمين بمصر على هذا العهد كبير شأن، وذلك لان الحركة التى كانت حولهما من جراء انتشار المذهب الشيعى واكتساحه لمذاهب أهل السنة أيام الفاطميين بمصر قد خفت حدتها إن لم تكن وقفت أيام الأيوبيين حيث لم يكن يسمح بها على عهد هؤلاء فكانت تجرى أبحاث أهل السنة فى هدوء بعيدة عن هذه التيارات الشيعية بعدها عن آراء المعتزلة والفلاسفة والزنادقة والملحدين، ومن ثم لم تتجدد أبحاث فى هذين العلمين على هذا العهد فبقيا كما كانا عليه حيث وضع الأشعريون علم الكلام وحيث ترجم المنطق وحرر، فى العصور العباسية الأولى ؛ وقد كان هذا على العكس مما كانت عليه حالهما بالمشرق على عهد المغول، من كثرة معالجة وتجديد بحوث وتأليف كتب، حتى كان غرب الدولة فى هذه القرون الثلاثة بمصر والشام كلا على شرقها فيهما بفارس وخراسان حيث نبغ بهذين الأقليمين كثير من علمائهما ذوى البحث والتأليف فيهما كنجم الدين القزوينى المتوفى سنة ٦٧٥ صاحب الرسالة الشمسية فى القواعد المنطقية، وبرهان الدين النسفى المتوفى سنة ٦٨٧ صاحب الفصول فى علم الجدل، وشمس الدين

السمرقندى المتوفى سنة ٦٩٠ صاحب آداب البحث ، ثم عضد الدين الايجى المتوفى سنة ٧٥٦ صاحب المواقف فى علم الكلام؛ على أنه ما كاد يمر نصف هذه القرون الثلاثة بالمشرق حتى عفت ريح الاستبداد فيه على هذين العلمين كما عفت على غيرهما من معظم العلوم :

ثانيا — علوم اللغة

نعنى بعلوم اللغة هنا كل ما يتصل بها من ألوان المعارف إلا نصوص الأدب من كتابة وشعر فقد أدخلناها تحت عنوان آت هو « الثقافة الادبية » لنقابل به عنوانا فات هو « الثقافة العلمية » ولكننا قصرنا القول هنا على المهم من علوم اللغة بالوجه الذى عنينا وهى النحو ومعه الصرف؛ ومتن اللغة؛ والبلاغة؛ والأدب؛ والتاريخ؛ وهاك كلمة عن كل علم من هذه العلوم الخمسة مع الايجاز .

١ النحو والصرف

كان الاهتمام بالنحو والصرف فى مصر والشام على عهد المماليك بالغ الغاية ومحل العناية فكثر المشتغلون به من علماء وطلاب حتى كثرت أئمته وتعددت كتبه وغدا هذان القطران يحملان أداء رسالته كاملة ونامية بعد أن فقدت حامليها بالمشرق والمغرب وانتقلت مراكز العلم من بغداد وبخارا ونيسابور ومن قرطبة وأشبيلية والقيروان إلى القاهرة ودمشق وإلى الاسكندرية وسيوط وقوص فالى حمص وحلب وحماة وغير تلك وهذه من سائر مدن مصر والشام التى أصبحنا نسمع النسب الكثيرة اليها تلى أسماء العلماء الأعلام فى النحو والصرف وفيما ذكرنا معهما من سائر العلوم؛ وهذى أسماء طائفة من كبار النحويين

ذوى المكانة فى البحث أو الوفرة فى الانتاج أو فيهما معا مرتبة على حسب سنى وفاتهم : —

١ — جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي المتوفى سنة ٦٧٢ — تعلم النحو بدمشق وعلمه أول ما علم فى حلب واشتهر بالتصنيف فيه حتى بلغت تآليفه حد الكثرة. وأشهرها الالفية وهى منظومة تبلغ ألف بيت فى قواعد النحو والصرف وقد شهر بها وشهرت به وتصدى لشرحها الكثير من النحاة وهى تلخيص لأرجوزة له فى نحو ثلاثة آلاف بيت سماها « الكافية الشافية » ومنها نسخة خطية فى مكتبة فينا — ٢ — ايجاز التعريف فى علم التصريف مخطوط فى أسبانيا — ٣ — تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد وهو مختصر لكتاب ضاع له اسمه « الفوائد » ومن التسهيل نسخ خطية بعدة مكاتب بأوربا . ٤ — لامية الافعال وهى قصيدة لامية فى أبنية الافعال لها شروح عدة منها شرح لابنه بدر الدين .

٢ — أمين الدين المحلى المتوفى سنة ٦٧٣ أحد أئمة النحو والصرف بالقاهرة وله فى الأول « مفتاح الاعراب » وفى الثانى « العنوان فى معرفة الأوزان »

٣ — بدر الدين المرادى المعروف بابن أم قاسم المتوفى سنة ٧٤٩ صاحب كتاب « الجنى الداني فى حروف المعاني » وشارح ألفية ابن مالك وكتاب التسهيل له والمفصل للزمخشرى .

٤ — جمال الدين بن هشام المتوفى سنة ٧٦١ — اشتهر بالتحقيق وسعة الاطلاع وذاع صيته من مصر فى العالم الاسلامى كله ، بغزارة علمه

وحسن تصرفه وكثرة مؤلفاته ، ومنها قطر الندى ، وشذور الذهب ، ومغنى اللبيب ، والالغاز النحوية ، وكلها مطبوع وله غيرها مخطوط بالمكاتب العامة .

٥ — بهاء الدين ابن عقيل المتوفى سنة ٧٦٩ شارح الالفية والتسهيل لابن مالك .

٦ — بدر الدين الاسكندرى المعروف بالدمامينى المتوفى سنة ٨٢٧ تصدر بالأزهر لأقراء النحو على ماله من باع فى الأدب ومقدرة على النثر والنظم ومشاركة فى الفقه ، ومن آثاره النحوية شرح التسهيل وحاشية على المغنى .

٢ — متن اللغة

كان الاهتمام بمتن اللغة على قلة رجاله بالغا مبلغ الاهتمام بالنحو من حيث البحث والانتاج ، ولذلك شهر هذا العصر بمعاجمها على أيدى رجالها المتخصصين أو على أيدي من عنى بها عنايته بالنحو من النحويين الذين طرقوا هذا الباب ، وسنكتفى هنا بمثل لأولئك وآخر لهؤلاء .

١ — جمال الدين بن مكرم المصرى المعروف بابن منظور المتوفى سنة ٧١١ اشتغل باللغة وعلومها وتاريخها وخلف فيها كثيرا من المؤلفات أهمها وأضخمها وأبقاها وأخلدها « لسان العرب » وهو معجم مطول مرتب على أواخر الكلم جمع فيه بين صحاح الجوهرى وتهذيب الأزهرى ومحكم ابن سيده وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير ، مع شرح الشواهد التى أتي بها من آيات وأحاديث وأشعار ، فجاء على كبره من أوثق المعاجم

العربية وقد طبع بمصر سنة ١٣٠٠ فى عشرين مجلدا ضخاما .

٢ـ ابن مالك المذكور فى النحويين ، وقد كان مع نحويته لغويا كبيرا ذا مؤلفات كثيرة فى اللغة . منها « تحفة المودود فى المقصور والممدود » وهى قصيدة همزية تشمل كلمات النوعين ؛ و « الاعلام بمثلث الكلام » وهى أرجوزة فى نحو ثلاثة آلاف بيت ضمنها الالفاظ التى لكل منها ثلاثة معان تختلف باختلاف الحركات مرتبة ترتيب حروف ، و « الالفاظ المختلفة » وهى مجموع المترادفات من الالفاظ .

٣ - البـــلاغة

كان علماء البلاغة فى هذا العهد قليلى العهد ولكنهم ذوو إنتاج ، وهذا بعض منهم مع ذكر مؤلفاتهم :

١ ـ جمال الدين أبو المعالى المعروف بابن خطيب دمشق وأحد رجال القضاء بمصر أيام الملك الناصر — كان - على ماله من نبوغ فى الفقه ـ من علماء البلاغة ذوى التصنيف فيها . ومن مؤلفاته « الافصاح فى المعانى والبيان » ، و « تلخيص مفتاح العلوم » للسكاكى .

٢ — صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وله « جنان الجناس فى البديع » وأكثر من نصفه الاخير أشعاره التى دخلها الجناس مرتبة هجائيا ، و « فض الختام فى التورية والاستخدام » و « الكشف والتنبيه على الوصف والتنبيه » .

٣ - محب الدين الحلبى المعروف بابن ناظر الجيش المتوفى سنة ٧٧٨ قدم القاهرة بعد أن تثقف ببلاده فلازم كثيرا من علمائها حتى مهر فى العربية وبلاغتها وتصدى للدرس فى المنصورية ، ومن مؤلفاته فى البلاغة

«شرح لتلخيص المفتاح» أسوة بمن أغرم بشرحه .

٤ أبو المحاسن بن حجة المتوفى سنة ٨٠٧ وله «خزانة الأدب وغاية الأرب» وهى شرح واف على بديعيته الميمية فى مدح رسول الله ﷺ التى جاءت أبياتها شواهد على جميع محسنات البديع ، و«كشف اللثام فى التورية والاستخدام» .

٥ ـ زين الدين أبو بكر بن إسحق المتوفى سنة ٨٤٧ . برع فى علوم العربية وتفرد كما يقول السيوطى بالمعانى والبيان وقد ولى مشيخة الشيخونية .

٦ شهاب الدين العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٢ وله كتاب «مختصر أساس البلاغة للزمخشرى»

٧ ـ شمس الدين النواجى المتوفى سنة ٨٥٩ وله «الشفاء فى بديع الاكتفاء» .

٨ ـ تاج الدين بن عربشاه المتوفى سنة ٩٠١ وله بديعية تسمى «شفاء الكليم بمدح النبى الكريم» على نمط ماسبقها من بديعيات لابن حجة وغيره ، ولها مقدمة وخاتمة .

٤ الأدب

قلنا فيما سبق إن مراكز الأدب وجمهرة الأدباء انتقلت فى العهد المملوكى من بغداد وقرطبة وسائر مدن المشرق والمغرب إلى القاهرة ودمشق وسائر مدن مصر والشام ، فكان من وراء ذلك أن استمرت حركة الاشتغال بالأدب بحثا وتأليفا دائبة فى هذين القطرين اللذين أصبحا حمى للعربية وموئلا لرجالها ، فلا غرو إذن أن يزدهر الأدب

وتكاثر كتبه ورجاله فيهما وأن تروق هذه الحركة السلاطين والأمراء والأعيان فينشطوها ويشجعوا القائمين عليها حتى إننا لنرى كثيرا من الكتب الجامعة والموضوعات العامة ألفت برسم كثير من هؤلاء، كما نرى أن معظم ما بأيدينا الآن من كتب الأدب إن هو إلا ثمرة من ثمرات هذا العهد الميمون الذى لم تتعرض كتبه لما تعرضت له كتب الشرق والغرب من حرق وإتلاف ، نعم إن السلطان سليم حمل كما كبيرا من هذا التراث معه إلى الاستانة عقب عودته إليها بعد فتح مصر ولكنه بقى فى تلك العاصمة، وما تسرب منه على أيدى المستشرقين استقر فى مكاتب أوربا فلم يعتره ضياع ثم يسوغ لنا أن نقول إن هذا العهد كان الجسر الذى عبرت عليه ثقافتنا العربية فى أزهى عصورها العباسية والأندلسية شرقا وغربا إلى عصر النهضة الذى نعيش فيه ، وهذا بيان بعض تلك الآثار مرتبة على حسب سنى الوفاة لمؤلفيها الأعلام .

١ — مجموع النوادر مما جرى للأوائل والأواخر للغزى الخازندارى المتوفى حوالى ٧٠٠ وهو من ألوان الأدب التاريخى الذى اعتاد مؤلفو الأدب أن يصنفوا فيه ، ومنه نسخة خطية ببرلين .

٢ — الملح والطرف من منادمات أرباب الحرف لمحمد البلبيسى المتوفى سنة ٧٤٦ وموضوعه يفهم من اسمه وهو مطبوع بمصر .

٣ — الدر الملتقط من كل بحر وسفط لابن محمود الكاتب الدمشقى المتوفى سنة ٧٥٣، وهو منتخبات أدبية بالمعنى العام للادب، ومنه نسخة بالمتحف البريطانى .

٤ — التذكرة الصلاحية لصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وهو مطول فى الأدب نثره وشعره وما يتصـــل به من الأمور التاريخية والاجتماعية وغيرهما فى ٣٠ مجلدا، ومقسم إلى أبواب على النحو الذى سلكه صاحب المستطرف الآتى بعد، ومن الأسف أن هـذا الكتاب لا توجد منه نسخة كاملة فى مكتبة ما وانما هو موزع على كثير من المكاتب العامة، وفى دار الكتب أربعة أجزاء منه غير متتابعة مخطوطة فى أكثر من ألف صفحة .

٥ — مطلع الفوائد ومجموع الفرائد لابن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ وهو من أحفل كتب الادب، وقد بلغت تقاريظه من الادباء مبلغا جعل صاحبه يضمها فى كتاب باسم «سجع المطوق» ومن الاول نسخة فى باريس ومن الثانى نسخة بدار الكتب، وله غيره «سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون» والرساله المعنية هنا هى الهزلية لا الجدية، وهو مطبوع بمصر ومرجع لكثير من تراجم الشعراء وغيرهم فى بسط وإتقان .

٦ — ديوان الصبابة لابن أبى حجلة التلمسانى نزيل القاهرة المتوفى بها سنة ٧٧٦ وهو مجموع أدب وشعر عن العشاق وألوانهم وأخبارهم، وفى مقدمته ترجمة لصاحبه وهو مطبوع بمصر .

٧ — مطالع البدور فى منازل السرور لعلاء الدين البهائى المتوفى سنة ٨١٥ وهو خزانة أدب وشعر مرتبة على ٥٠ بابا فى المنازل وكل ما يتصل بها وفى الانسان وما يحيط به وفى غيرهما، وهو مطبوع بمصر .

٨ — « ثمرات الاوراق » وذيله « تأهيل الغريب » لابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وكلاهما من كتب المحاضرات بالمعنى المفهوم للمحاضرة قديما ، وهو عقد أبواب لأشياء تذكر محاسنها ومقابحها أو منافعها ومضارها مما يحتاج اليه حضور المجالس ، وقد طبع بمصر مرارا .

٩ — المستطرف فى كل فن مستظرف لمحمد بن أحمد الخطيب الأبشيهى المتوفى حوالى سنة ٨٥٠ ويشتمل على ٤٨ بابا فى شتى ألوان الادب وما يتصل به ، وفى المواليد الثلاثة وما ينخرط فى سلكها وبه كثير من المسائل التاريخية والاجتماعية التى عنى بها الغربيون ولذا ترجم إلى بعض لغاتهم وطبع بمصر مرارا .

١٠ — « حلبة الكميت » لشمس الدين النواجى المتوفى سنة ٨٥٩ فى الخمر وما قيل فيها وفى كل ما يتصل بها اتصالا مباشرا أو غير مباشر حتى إن آخره فصل فى التوبة منها وطبع بمصر مرارا ، وله فى معناه « الصبوح فى مجالس الشراب عند الصباح » وتوجد نسخة منه ببرلين ، وله فى غير ذلك من سائر الآداب « نزهة الالباب فى أخبار ذوى الالباب » عن الكرماء وغيرهم وتوجد نسخة منه فى برلين ، ومراتع الغزلان فى الحسان من الغلمان وموضوعه يعرف من اسمه بدار الكتب : وصحائف الحسنات فى وصف الخال ، بكثير من مكاتب أوروبا ، وروضة المجالسة وغيضة المجانسة بالاسكوريال ثم التذكرة وهى مجموعة أدب كبيرة فى برلين .

١١ — الكناس الحوارى فى الحسان من الجوارى ، ووجنة الولدان

فى الحسان من الغلمان ؛ وكلاهما لشهاب الدين الحجازى المتوفى سنة ٨٧٤ وموضوعه يعرف من اسمه وهما فى مكاتب أوروبا .

١٢ — نزهة النفوس ومضحك العبوس ، وقرة الناظر ونزهة الخاطر، لنور الدين بن سودون المتوفى سنة ٨٧٨ وكلاهما ملىء بالنكات الأدبية نثرا وشعرا ويغلب هزله على جده والأول ببعض مكاتب أوروبا والثاني بدار الكتب .

١٣ — أسواق الأشواق فى مصارع العشاق، لبرهان الدين البقاعى المتوفى سنة ٨٨٥ وهو شبيه بمصارع العشاق للسراج القارى مع بعض نقص وبعض زيادة ومنه نسخ ببعض مكاتب أوروبا .

١٤ — « الجواهر المجموعة والنوادر المسموعة » فى الأدب العام ومنه نسخة بالاسكوريال .

هذا وللأدب موسوعات وصلت إلينا عن هذا العصر وهى بين خاصة بالأدب أو جامعة معه علوما أخرى أهمها التاريخ وهو من الأدب بمعناه العام، والمقام يقتضينا التنويه ببعضها هنا قبل الكلام على التاريخ وهو الباقى من العلوم اللغوية .

١ — « نهاية الأرب فى فنون الأدب » لأبى العباس شهاب الدين النويرى المتوفى سنة ٧٣٢ وهو مقسم إلى خمسة فنون الاول فى السماء والارض والثاني فى الانسان والثالث فى الحيوان والرابع فى النبات والخامس فى التاريخ وهو أوسعها وأحفلها وقد نقل صورة شمسية له المرحوم زكى باشا من مكتبة الاستانة وتطبعه دار الكتب الآن على أن يكون فى أكثر من ٢٠ جزءا

٢ — «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨ ألفه برسم خزانة السلطان المؤيد شيخ فى الجامع المنسوب اليه بالقاهرة وجعله قسمين الاول فى الارض والثانى فى سكانها وكلاهما ذو أبواب كثيرة وقد نقل زكى باشا صورة شمسية له من مكتبات أوروبا وتطبعه دار الكتب على أن يكون فى أكثر من ٢٠ جزءا .

٣ — الوافى فى الوفيات لصلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ فى خمسين مجلدة جمعت تراجم الأعيان ونجباء الزمان مرتبة على أحرف الهجاء لكنه بدأ بالمحمدين وأتم بعدهم حرف الميم ثم عاد إلى الألف ؛ ولا يوجد هذا الكتاب كاملا فى مكتبة ما وانما هو نهب موزع على كثير من المكاتب العامة بالشرق والغرب ؛ وما كان أجدره بشخصية كشخصية زكى باشا تنقل صورة شمسية له وتطبعها دار الكتب كما حدث فى الموسوعتين السابقتين

ومما لاينبغى إغفال ذكره هنا كخاتمة لمؤلفى هذا العصر ورجال موسوعاته جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فقد ذكر مؤلفاته فى ترجمته لنفسه بكتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » على أنها ٢٦٠ كتابا ثم عددها منوعا إياها باعتبار العلوم ؛ فكانت ٢٤ فى التفسير ومتعلقاته والقراءات ؛ و ٨٦ فى الحديث ومتعلقاته ، و ٦١ فى الفقه ومتعلقاته ، و ٩٠ فى فن العربية ومتعلقاته ، ١٩ فى الأصول والبيان والتصوف ، ٤١ فى التاريخ والأدب ؛ والذى يعنينا ذكر بعضه هنا هو كتب التاريخ والأدب ؛ فمن موسوعاته التاريخية التى تسلك

مع الموسوعات الأربع السابقة كتاب

٥ — تاريخ الخلفاء — وقد ترجم فيه للخلفاء والملوك والسلاطين من عهد أبي بكر إلى الاشرف قايتباى المتوفى سنة ٩٠١ على ترتيب أزمانهم، وكان يذكر فى ترجمة كل منهم من عاصره من الأئمة الأعلام وماوقع فى أيامه من الحوادث المستغربة أوالجسام، وقد طبع فى مصر وفى عدة أقطار كما ترجم الى بعض اللغات

٦ — ومن كتبه الادبية التاريخية الكتاب المنوه عنه آنفا وهو حسن المحاضرة لأنه وان لم يبلغ مبلغ الموسوعة قد جاء بجزأيه من أوفى المراجع فى أخبار مصر والقاهرة من جميع النواحى التى يهتم لها مؤرخ الادب سيان فى ذلك معاني الموضوعات ورجال الطبقات، وقد طبع مرارا وكثر تداوله فى كثير من الأقطار

هذا ولسنا نغفل هنا بعد الذى تقدم عن الأدب من الوجهة العامة أن نذكر شيئا خاصا عما كان للكتابة القصصية وللنقد الأدبي من نصيب فى هذا العصر. —

١ — القصة. قد استكملت فيه كل من قصة الف ليلة وليلة المترجمة على العهد العباسى والمزيد فيها على العهد الفاطمى وكذا عنتر المبدوءة الوضع فى العهد الفاطمى باقى موضوعاتها وتمام نضجها فاكتسبتا بذلك قيمة فنية وزادتا زيادة حسية يدركها كل قارىء لها متى كان ذا علم بالتاريخ الاسلامى والتطور القصصى، وفيه وضعت قصة الظاهر بيبرس لصاحبها محي الدين بن عبدالظاهر

المتوفى سنة ٦٩٢ فغدت أحب من هاتين إلى قلوب الجماهير وأشغل منهما لراغبي السمر بمقاهي القاهرة وسائر مدن الشرق الاسلامي ؛ ولعل مما ساعد على هذا رغبة جماهير الشرق في ظهور البطل المثالي ، وما كان هذا البطل الا الفارس المملوكي الممثل فيها أكثر منهما والمخلص المنقذ للشرق من ويلات الصليبيين المتعصبين ، والبرابرة المغيرين من التتار المغولين ؛ ثم جاء شمس الدين بن دانيال المتوفى سنة ٧١٠ فألف كتابه « طيف الخيال » على شكل رواية هزلية فيها كثير من المجون والخلاعة ولعل هذا الكتاب هو المثل الوحيد الباقي للقصص التمثيلي في تلك العصور إن كان لها فيه سواه ؛ وعنه أخذت أوربا هذا اللون - شرقا بوساطة أتراك آسيا وغربا بوساطة عرب الأندلس - والبقية الباقية له الآن هي اللعبة الروائية المعروفة بالأرجوز ، وقد ألفت غير هذه قصص أخرى ولكنها جاءت ، إما أقرب إلى خبر السيرة منها إلى فن القصة مثل « المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية » لشافع العسقلاني المتوفى سنة ٧٣٠ ومنها نسخة في ليدن ، وإما أقرب إلى كليلة ودمنة مثل فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء لشهاب الدين بن عربشاه المتوفى سنة ٨٥٤ فقد جاءت مثله قصصا حيوانيا كسائر الكتب التي حذت حذوه وحكت طابعه .

٢ — النقد الأدبي — جاء أكثره مبعثرا في كتب الأدب لهذا العهد ولم يجيء فيه ذا شخصية مستقلة في كتاب بعينه إلا قليل ، نذكر منه كتاب « نصرة الثائر على المثل السائر » لصلاح الدين الصفدي

المتوفى سنة ٧٦٤ وهو انتقاد لابن الأثير صاحب الكتاب المذكور واستدراك عليه فى أشياء فائتة : على النمط الذى اتخذه قبل هذا عز الدين بن أبى الحديد المدائنى المتوفى سنة ٦٥٥ فى كتابه « الفلك الدائر على المثل السائر » ومن الأول نسخة بدار الكتب ومن الثاني نسخة بليدن ، ثم كتاب « ثبوت الحجه على الموصلى والحلى لابن حجه » المتوفى سنة ٨٣٧ وهو بحث انتقادى على بديعتى عز الدين الموصلى وصفى الدين الحلى .

٥ — التاريخ

لم يعن بالتاريخ قطر من الأقطار فى قديمه وحديثه عناية مصر والشام به فى هذا العصر الذى نحن بصدده عصر المماليك : فقد فاق مؤرخوه جميع مؤرخى العالم العربي الاسلامى كثرة عدد ووفرة إنتاج وحسن تنويع ، من مؤرخين عامين إلى مؤرخى بلاد إلى أصحاب سير إلى رجال طبقات؛ وهذى مثل بارزة لكل نوع .

١ — فمن المؤرخين العامين بمصر ، بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ وصاحب « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » وهو من بدء الخليقة إلى سنة ٨٥٠ فى بضعة وعشرين مجلدا ولا توجد أجزاؤه مجتمعة فى مكان وإنما هى نهب مقسم بين مكتبات العالم و بدار الكتب منه ستة أجزاء ، ومنهم بالشام أبو الفداء اسماعيل مالك حماة من أمراء الأيوبيين المتوفى سنة ٧٣٢ صاحب « المختصر فى تاريخ البشر » وهو أربعة أجزاء ينتهى بسنة ٧٢٩ وهو مطبوع كثير التداول .

٢ — ومن مؤرخى البلاد بمصر ، تقى الدين المقريزى المتوفى سنة

٨٤٥ صاحب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» المعروف بخطط المقريزى فى أربعة أجزاء من أجمع الكتب التى يمكن الرجوع إليها فى أحوال مصر السياسية والاجتماعية فضلا عن التاريخية وهو مطبوع كثير التداول ، ومنهم بالشام أبو اليمن بن مجير الدين الفخرى قاضى بيت المقدس المتوفى سنة ٩٢٧ صاحب «الأنيس الجليل فى تاريخ القدس والخليل» وهو أجمع كتاب فى تاريخ هاتين المدينتين وكل مايتصل به وبهما ، وهو مطبوع بمصر .

٣ — ومن أصحاب السير بمصر ، شهاب الدين أبو العباس القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ وصاحب «المواهب اللدنية فى المنح المحمدية» وهو كتاب معدوم النظير فى بابه مطبوع بمصر فى ثمانية مجلدات . ومنهم بالشام شهاب الدين بن عربشاه الدمشقى المتوفى سنة ٨٥٠ صاحب «عجائب المقدور فى نوائب تيمور» وهو تاريخ مبسوط لسيرة هذا الطاغية وما ارتكبه فى حروبه من فظائع ، ثم هو محل ثقة لأن مؤلفه كان ممن عاصروه وهو مطبوع بمصر .

٤ — ومن رجال الطبقات بمصر ، شهاب الدين أبو الفضل المعروف بابن حجر القسطلانى المتوفى سنة ٨٥٢ وصاحب «الاصابة فى تمييز الصحابة» مرتب التراجم على حروف المعجم وهو أجمع كتاب فى تراجم الصحابة والتابعين ، جمع فيه مافى كتب الاستيعاب وذيله وأسد الغابة واستدرك عليها ، وقد طبع بمصر فى ثمانية أجزاء ، ومنهم بالشام شمس الدين أبو العباس المعروف بابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ وصاحب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان مما هو بالنقل

أو السماع أو أثبته العيان » وهو ذخيرة علم وأدب وتاريخ ولغة وتزيد تراجمه على ثمانمائة. وقد رتب التراجم على حروف المعجم للأسماء ولكنه عنون لها فى الفهرس بشهرتها من لقب أو كنية فجاء لذلك مجهدا للباحث ، إذ الأسماء مغمورة تحت شهرة اللقب أو الكنية ، ولعل ذلك محل المؤاخذة له الوحيد ، وقد طبع بالقاهرة فى أربع مجلدات ، ولشهرة هذا الكتاب ومكانته ألف ابن شاكر الكتبى الحلبى المتوفى سنة ٧٦٤ ذيلا له باسم « فوات الوفيات » زادت تراجمه عن خمسمائة مابين داخل فى سنى الوفيات ولكنه متروك أو خارج آت بعدها إلى حيث ألف الفوات ، وقد طبع بالقاهرة فى جزأين وشهر بشهرة أصله .

ثالثا - العلوم الكونية

لم يكن اشتغال العلماء بما أسلفنا من علوم دينية وأخرى لغوية بالصارف لهم عن الاشتغال بالعلوم الكونية من طبيعية ورياضية وسياسية ، ولكنهم جعلوا هذه فى المرتبة الثالثة بعد هاتين، كما عنوا ببعض العلوم الكونية دون بعض للحاجة اليها كالطب من الطبيعية والهندسة من الرياضية وتدبير الدولة من السياسية ، وهذى كلمة يسيرة عن كل من هذه الثلاثة :

١ - الطب - عنوا بالطب عناية بالغة لمسيس حاجتهم اليه حتى أضاف علماؤهم فيه جديدا إلى علم من قبلهم على يد الأفذاذ المؤلفين من أطبائهم ، كعلاء الدين أبي الحسن على بن النفيس المتوفى سنة ٦٨٧ شارح القانون لابن سينا ، وصاحب المختار من الأغذية، وكاشف نبض

الدورة الدموية قبل سرفيتوس البرتقالي – المنسوب اليه هذا الكشف افتئاتا – بثلاثة قرون ، وعميد مستشفى قلاوون أكبر دليل مادى على عناية المماليك بالطب ، وكأبي الفرج بن القف المتوفى سنة ٦٨٥ صاحب العمدة فى صناعة الجراح . وقد نبغوا فى طب العين حتى أصبحت تعالج بمصر والشام على طريقة لم تكن معروفة فى بقية أنحاء العالم ، ومن تآليفهم فيه « الكافى فى الكحل » لخليفة بن أبى المحاسن الحلبى أيام الظاهر بيبرس و « نور العيون وجامع الفنون » لصلاح الدين بن يوسف أيام المنصور قلاوون وهو الذى شهر بعملية الكتركته « المية الزرقة » . وقد نبغوا بجوار الطب فى الصيدلة لحاجته اليها وكان من أطبائهم فيها الجوينى بن الكتبى المتوفى سنة ٧١١ صاحب كتاب ما لا يسع الطبيب جهله فى مفردات الأدوية ومركبها . ومحمد القوصى مؤلف « كمال الفرحة فى دفع السموم وحفظ الصحة » لقانصوه الغورى ، وكلا الكتابين بدار الكتب . ولم يفتهم أن يبرعوا فى علم البيطرة وهى طب الحيوان وخاصة الخيل ؛ فلأبى بكر بن المنذر البيطار المشرف على اصطبلات الناصر بن قلاوون كتاب « الصناعتين البيطرة والزرطقة » ولعبد المؤمن الدمياطى أحد محاضرى المدرسة المنصورية كتاب « فضل الخيل » ولعل أوسع كتب الحيوان فى هذا العهد هو « حياة الحيوان الكبرى » لكمال الدين الدميرى المتوفى سنة ٨٠٨ .

٢ — الهندسة ، كان نبوغهم فيها لحاجة العمارة المغرمين بها اليها وقد أصبحت مدرسة العمارة فى عهدهم ذات فن واسع فى أبحاثه دقيق فى تصميمه ، وهو وإن كان يرجع فى أصله الأول إلى ما ورثه عن العهدين الفاطمى

والأيوبى إلا أنهم زادوا فيه من الجديد كثيرا عن طريق الاستعانة بالفنانين اللاجئين إلى مصر من الشرق والغرب، كالاستغناء بالحجارة عن الآجر فى بناء المآذن، والترقى بصناعة البناء، وانشاء الأبنية المخططة واستخدام الزخارف الملونة، والنهوض بصناعة المدليات والقرنصات، والنقش بالرسوم الهندسية العربية وبالخط الكوفى، والنبوغ فى صناعة البرنز والزجاج والخشب النفيس والتطعيم وغيره مما بدأ فى المساجد ثم عم المدارس والقصور وكل ماتضم هذه من تحف وطرف، وأخيرا تناهت بهم الدقة فى الزخرف إلى فن التذهيب الذى تنوعت أشكاله واتسعت ميادينه ولاسيما فى المصاحف ومحاريب المساجد. وكل هذا الذى ذكرنا أمامنا منه الآن مشاهد عجب فى المساجد وبقايا القصور وفيما تضمه دار الكتب ودار الآثار من مخلفات هذا العصر الذى يعتبر بحق عصر الفن والجمال.

٣ — تدبير الدولة — أما تدبير الدولة فقد ظهرت عنايتهم به فى الناحيتين الادارية والعسكرية. فعنوا بالنظم الادارية التى ترسم الخطط لواجبات ذوى الأمر من السلطان إلى الولاة وسائر العمال عناية بالغة؛ ومن أهم الكتب فى هذه الناحية كتاب «آثار الأول فى تدبير الدول» للحسن بن عبد الله العباسى وقد ألفه للملك المظفر السلطان بيبرس المنصورى ورتبه على أربعة أقسام وهو مطبوع بمصر. كما عنوا بالفنون الحربية أيما عناية ومن آثارهم فيها كتاب «كشف الكروب فى معرفة الحروب» لعماد الدين موسى المصرى وقد ألفه للملك الظاهر جقمق فى فن الحرب ونظام الجند، وهو مبوب فى عشرة

أبواب ومنه نسخة بدار الكتب .

دور العلم والمدارس

أما وقد انتهينا من الكلام على الثقافة العلمية فى مظاهرها الثلاثة من دينية ولغوية وكونية فانا سانثنى القول على دور العلم والمدارس فى هذا العهد، على اعتبار أنها كانت المنبع لهذه الثقافة ومحل الدرس لعلومها، مراعين فى ذلك أوجز الايجاز :—

بدأ تلقى العلم أول مابدأ عند المسلمين فى المساجد التى ولدت حين ولد الاسلام، ومن ثم تلقاه المصريون فيها وبخاصة فى الجامعة منها وأولها مسجد عمرو، وأهمها من بعده الجامع الطولونى ثم الجامع الأزهر ولما أتم الحاكم المسجد الذى بدأه أبوه العزيز بشرقى القاهرة وسماه هو باسمه اتبعت فيه سنة الجوامع الثلاثة قبله غير أن وزيرها يعقوب ابن يوسف بن كلس ابتنى بجواره دارا لجماعة من العلماء عدتهم ٣٥ ورتب لهم من الرزق مايكفيهم، عرفت بدار الحكمة فكانت أول دار خصصت للدرس بعيدة عن المساجد، ولما أزال صلاح الدين دولة الفاطميين من مصر وأغلق أزهرهم ودار حكمتهم، وكانت الدور الخاصة قد عرفت فى الشرق بمدارس نيسابور وبالمدرسة النظامية ذات المعاليم فى بغداد، وحاكى العباسيين السلطان نور الدين فى إنشاء المدارس بدمشق وبعض مدن الشام، اقتدى الأيوبيون بنور الدين فى إنشاء المدارس بمصر فكانت الصلاحية لصلاح الدين، والكاملية للكامل، والصالحية للصالح، كما كان غيرها لغيرهم من ملوك وغير ملوك، غير أن المدارس لم يكثر عددها ولم يعظم شأنها إلا فى

هذا العصر الذى نتكلم عنه حيث لم يتخل ملك من ملوكه عن أن تكون له مدرسة، وتبعهم فى ذلك كثير من الأمراء والوزراء والاعيان، حتى عجت القاهرة بها وفاقت فى ذلك أمهات الحواضر فى سائر البلدان، وهذا نموذج من تلك المدارس المنفردة عن المساجد أو المتصلة بها على سبيل التمثيل .

١ — المدرسة الظاهرية — بدأ عمارتها الظاهر بيبرس بين القصرين على مقربة من المشهد الحسينى سنة ستين وستمائة، ولما فرغ منها بعد سنتين جمع أهل العلم وأحضر القراء احتفالا بفتحها وأجلس أهل الدروس كل طائفة فى إيوانها، ثم مدت الاسمطة بعد المدارسة والمناظرة فأكلوا وقام من الشعراء الجزار والسراج والخشاب فهنئوا وأفيضت عليهم الخلع، وكانت بها خزانة كتب فى سائر العلوم وبجانبها مكتب لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله، وأبى السلطان أن يعمل فيها أحد بغير أجر فرتب وقفها وكان منه ربعه خارج باب زويلة بالشارع المسمى به الآن فكانت تجرى على من فيها الجرايات وللكسا غير المعاليم وتدرس بها علوم الدين وعلوم اللغة وكثير من العلوم الكونية الأخرى .

٢ — المدرسة المنصورية — نسبة الى المنصور قلاوون أنشأها بين القصرين تجاه قبته ومارستانه، على يد أميره علم الدين سنجر الشجاعى ورتب بها دروسا أربعة المذاهب الاربعة ودرسا للحديث النبوى وآخر لتفسير القرآن ثم سابعا للطب ولتغذية المارستان، وكانت تستمد الكتب من خزانة جليلة بالغة أمامها، فيها من الكتب عدة أحمال

لأنواع العلوم، وكانت أوقافها وأوقاف القبة تغل فى السنة أكثر من أربعة آلاف دينار

٣ — المدرسة الناصرية — نسبة الى الملك الناصر بن قلاوون بجوار قبة أبيه من الشرق وهى من أجمل مبانى القاهرة وبابها من الرخام الابيض الفاتن الصناعة وكانت بها قبة دون قبة ابيه وقد وقف عليها أوقافا كثيرة من أربع وقيساريات وحوانيت، ورتب بها دروسا للمذاهب الاربعة يأخذ علماؤها وطلبتها المعاليم وكان يفرق على طلبتها وقرائها وسائر أرباب الوظائف بها السكر فى كل شهر ولحوم الاضاحى فى كل سنة ثم كانت بها خزانة كتب جليله

٤ — المدرسة المؤيديه المعروفه الآن بجامع المؤيد بجوار باب زويله، أنشأها السلطان المؤيد شيخ المحمودى فجاءت جامعة لمحاسن البنيان، وعمل بها خزانة حفلت بكثير من الكتب التى كانت بالقلعة والتى كانت بديوان الانشاء ثم رتبت بها الدروس لجميع المذاهب والتفسير والحديث، ولما افتتحها أعد السماط وملأ الفسقية التى فى الصحن بالسكر المذاب، فأكل الناس وشربوا ثم خلع على العلماء وبدأ التعليم

٤ — المدرسة الناصرية المعروفة الآن بجامع السلطان حسن — وهو الملك الناصر — أنشأها تجاه القلعة فى أكبر قالب وأحسن هندام بحيث لايعرف فى الاسلام بناء يضاهيها، وقد تجاوزت النفقة عليها الحدود لضخامة كل شيء فيها، فالايوان أكبر من ايوان كسرى، والقبة لم يبن فى العالم الاسلامى مثلها. والمنبر الرخامى لانظير له وكذا البوابة العظيمة،

وقد ضم هذا البناء بناء خاصا لكل مدرسة من المدارس الأربع ، ولمامات الناصر قبل إتمامها أتمها من بعده الطواشى بشير أحد مماليكه ولكنها لقيت على العهد الشركسى اضطهادا لتمكنها من القلعة ، ففى حين حدوث الفتن كان يصعد عليها المناوئون فينالون من القلعة بالرمى مايريدون

هذا وهناك مدارس عظيمة خلاف هذه ، كالجاولية والصرغتمشية المجاورتين للجامع الطولونى والمنسوبتين إلى علم الدين سنجر الجاولى وسيف الدين صرغتمش الناصرى ، والصاحبية البهائية بمدينة مصر نسبة إلى الصاحب بهاء الدين وزير الظاهر بيبرس ، والحجازية بين القصرين نسبة إلى الأمير بكتمر الحجازى ، ومدرسة أم السلطان بالتبانة لخوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان ، والمسلمية بمدينة مصر نسبة إلى ناصر الدين بن مسلم أحد التجار وزوج ابنة كبيرهم شمس الدين بن يسير ، الى غير هذه المسرودة وتلك المشروحة مما يصل فى هذا العهد الى المائة ويزيد .

الثقافة الأدبية

أسلفنا القول على الأدب كعلم حيث الكلام على الحياة العلمية فذكرنا جهود علمائه فى التأليف فيه، وذكرنا بعد ذلك جهود المؤرخين لما بينه وبين التاريخ من رباط، وبقى أن نتكلم عليه كنص يشمل الرسالة فى جميع أنواعها والقصيدة فى شتى فنونها، مع التأريخ لكل من الكتابة والشعر تأريخا يبين حياتهما مستقى من النصوص المصدرة بها والمصورة لها.

أولا ـ الكتابة

١ ـ نماذجها

١ ـ كتب جمال الدين أبو بكر محمد بن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ يهنىء علاء الدين بن محيي الدين بن فضل الله بالعودة من الكرك سنة ٧٤٣ ـ على عهد الملك الصالح علاء الدين بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون ـ الى كتابة السر الشريف بالأبواب السلطانية : —

المملوك يقبل الباسطة الشريفة ، لا زالت خناصر الحمد على فضل بنانها معقودة ، ومآثر البأس والكرم لها ومنها شاهدة ومشهودة ، وبواتر السيوف مسيرة القصد الى مناظرة أقلامها المقصودة . تقبيلا يود لو شافه بشفاهه مورد الجود من الأنامل ، وكاثر بثغره عند المثول للتقبيل ثغور الأماثل . فكان يشافه بشوقه موردا كثير الزحام، وكان يكاثر بعقد قبله على يد الفضل عقودا جزيلة الانتظام ، وكان

يحاكم جور الضيم الى من أبى الله لجار مشاهدته أن يضام . وينهى ما وصل اليه والى الأولياء من السرور ، وما رفع بينهم وبين الابتهاج من الشرور ، وما طولع فى أخبار المسرة من السطور ، بوصول مولانا ومن معه الى مساكن العز ساكنين ، ودخولهم كدخول يوسف عليه السلام ومن معه الى مصر آمنين . واستقراره فى أشرف مكان ومكانة ، واستنصار مصر بأقلامه على العادة فان هذه سهـــام وهذه كنانة ، وإسفار غمام السفرة عن كوكب علا طالما حرس بيمينه أفق الملك وهداه وزانه . وما كانت الاغيبة أحمد الله عقباها ، وغيابة بعد من الله عز وجل وجلاها . وفترة ثنى الله فترتهـا فتنفس خناق المنصب المشتاق لوجهه الـكريم ، وهجرة صرف الله هجيرها فسقى طرس الانشاء الذى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . وما محاسن مولانا إلا زينة من زين الدنيا فعليها يتشاكس المتشاكسون ، ومامزاج كلماته إلا من تسنيم وفى ذلك فليتنافس المتنافسون .

فالحمد لله على أن أقر العيون بمعاودة ظله الوريف ، وعلى أن شفى الصدور بقربه وأولها وأولاها صدر السر الشريف . وعلى أن أجزل الهناء وقد شمل ظله وقد كمل بابن الفضل فضله وقد بهر سناؤه وسناه ، وقد تسعب القريب والبعيد فان أجدى على مصر مورده فقد جادت على الشام سماه . وقد أخذ المملوك حظه من هذه البشرى ، وو الى السجود لله شكرا . وجهز خدمته هذه نائبة عنه فى تقبيل بنان إن سماه مولى الكرم بحرا ، فقد سماه مربى الملك برا . لا زالت الممالك متحفة بيمن مولانا ظاعنا ومقيما ، متصفة بحمده وحمد سلفه الـكريم حديثا وقديما ،

تالية على مهمات الملك بصحبة بيته الشريف « وكان فضل الله عليك عظيما » .

٢ - وكتب صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ يجيز الرواية الادبية لشهاب الدين أبى العباس أحمد كاتب الدست بالشام :-

الحمد لله الذى اذا دعى أجاب ، واذا أنعم على الأديب بذوق أتى فى نظمه ونثره بالعجب العجاب ؛ وإذا وهب البليغ فطرة سليمة لم يكن على حجاه حجاب . نحمده على نعمه التى منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الانشاء من حسن الصياغة ، وصيد أوابد المعانى التى من أعمل فكره فى اقتناصها وروى أمن الرواغة . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها القاطعة واقتناصها ، وجعلت وقاية لقائلها يوم يضيق على الخلائق فسيح عراصها . ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة بالنكت الحسان ، وحث على الخير وحض على الاحسان ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رووا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سنته وأفعاله . وعلموا أن هذه الشرعة المطهرة أذخرها الله تعالى له ، فلم تك تصلح إلا له . صلاة هامية الغفران ، نامية الرضوان . ما أجاب مجيب لمن استدعى ، وعملت إن فى المبتدأ نصبا ولم تغير على الخبر رفعا . وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد فان علم الرواية من محاسن الاسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تخفق لهم ذوائب الطروس وتنتصب رماح الاقلام . ولم تزل

رغبة السلف تتوفر عليه ، وتشير أنامل إرشادهم للانام بالحث عليه . ومابرح الأئمة الكبار يرتحلون إلى أقاصى الاقاليم فى طلبه . ويتحملون المشاق والمتاعب فيه ويتجملون بسببه ، ولكنه فن يحتاج الى ذوق يعاضد من لا يعانده ، وأمر لا يصبر عنه من ألفه وما يعلم الشوق الا من يكابده .

ولما كان الشيخ الامام شهاب الدين أبو العباس أحمد ممن نظم ، فودت الدرر لو اتسقت فى أفلاك ما رقم . وكتب الطروس فوشاها ، وغشاها من زهرات الرياض ما غشاها . وحل المترجم فسحر عقل كل لبيب وخلب لبه ، ووقع على القصد فيه فكأنه شيء من الغيب خص الله به قلبه ، وأتي فيه ببدائع ما تساوى ابن الصيرفى عندها بحبه . وخطب فصدع القلوب ، وأجرى ذنوب المدامع من أهل الذنوب ، وحذر فكانت أسجاعه كألحان إسحق وسامعه يبكى بأجفان يعقوب . كأنما هو فى حلة الخطابة بدر فى غمامه ، أو منبره غصن وهو فوقه حمامة ، أو بحر وفضائله مثل أمواجه ودره يحكى كلامه . لو رآه ابن نباتة ما أورقت بالفصاحة أعواده ، أو ابن المنير ما رقمت بالبلاغة أبراده . وقد أراد أن يشرف قدرى ، ويعرف نكرى ، فطلب الاجازة عنى وأنا أحق بالأخذ عنه ، واستدعى ذلك منى ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه . نعم فقد استخرت الله تعالى وأجزت له ما يجوز لى تسميعه من مروياتى ، وذكرت له شيئا عن أشياخى ومصنفاتي :

إجازة قاصر عن كل شيء   يسير من الرواية فى مفازه
لمن ملك الفضائل واقتناها   وجاز مدى العلا سبقا وجازه

٣ — وهذه رقعة تصدير للتفسير بالجامع الأزهر صادرة من ديوان مصر ، أنشأها أبو العباس أحمد القلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ لشهاب الدين أحمد الأنصارى الشهير بالشاب التائب : —

رسم بالأمر الشريف — لا زالت صدقاته الشريفة تخص المجالس بمن إذا جلس صدر مجلس كان لرتبته أجمل صدر يجتبى من علماء التفسير ؛ وإذا سلك سبيل الايضاح كان كلامه تفسير تفسير ، وتصطفى من سراة الأماثل من دار نعته بين الشاب التائب والشيخ الصالح فكان له أكرم نعت على كل تقدير — أن يستمر المجلس السامى أدام الله تعالى رفعته فى كذا وكذا من الأيام ؛ لأنه الامام الذى لا تسامى علومه ولا تسام ، والعلامة الذى لا تدرك مداركه ولا ترام . والحبر الذى تنعقد على فضله الخناصر ؛ وفارس الحلبة الذى يعترف بالقصور عن مجاراة جياده المناظر . وآية التفسير التى لا تنسخ ، وعقد حقيقته الذى لا يفسخ . والماهر الذى استحق بمهارته التصدير ، والجامع لفنونه المتنوعة جمع سلامة لا جمع تكسير . وترجمان معانيه الآتي من غرائب تأويله بالعجب العجاب ، والعارف بهدى طريقه الذى إذا قال « قال الذى عنده علم من الكتاب » . وزاهد الوقت الذى زين العلم بالعمل ، وناسك الدهر الذى قصر عن مبلغ مداه الأمل .

فليتلق ما ألقى إليه بالقبول ، وليستند إلى صدر مجلس يقول فيه ويطول . وليبين من معاني كتاب الله ما أجمل ، ويوضح من خفى مقاصده ما أشكل . وليسلك فى تفسيره أقوم سنن ، ويعلن

بأسراره الخفية فسر كتاب الله أجدر أن يكون عن علن ، وليجر فيه على ما ألف من تحقيقاته فانه إذا لم يحقق المناظرة فمن . وليأخذ مشايخ أهل مجلسه بالاحسان ، كما أحسن الله إليه فهل جزاء الاحسان إلا الاحسان ؛ ويحض شبابهم على التوبة ليحببهم الله فيتصل فى المحبة سندهم فان الشاب التائب حبيب الرحمن . والله تعالى يرقيه إلى أرفع الذرا ، ويرفع مجلسه السامى على محل الثريا « وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا » .

٤ — وأخيرا هذه صورة مرسوم صادر من ديوان الشام أيام حكم الناصر فرج إلى الخواجه شمس الدين محمد بن المزلق كبير تجار دمشق بمسامحته فى المكوس عن مائتى الف درهم من نقود تجارته .

رسم بالأمر الشريف — لا زال قصد ذوى الحقوق عنده ناجحا ، وإحسانه للمتقرب إليه مسامحا — أن يسامح الجناب العالى ، الصدرى الكبيرى المحترمى المؤتمنى الأوحدى الأكملى الرئيسى العارفى المقربي الخواجكي الشمسى ، مجد الاسلام والمسلمين ، شرف الأكابر فى العالمين ، سفير الدوله مؤتمن الملوك والسلاطين ، محمد بن المزلق عين الخواجكية ، بالمملكة الشريفة الشامية — أدام الله تعالى نعمته — بما يجب عليه من الحقوق الديوانية ، بالطرقات المصرية ، وجميع البلاد الشامية ، مما يبيعه ويبتاعه ويتعوضه من جميع الأصناف خلا الممنوعات صادرا وواردا ، ويثمن عليه بقيمة ما يشتريه بما مبلغه من الدراهم النقرة الجيدة مائتا ألف درهم ، ولا يطالب عن ذلك بحق من الحقوق ولا بمقرر من المقررات ، مسامحة باقية مستمرة ، دائمة أبداً مستقرة .

لا ينتقض حكمها، ولا يغير رسمها. لخدمته الدول على اختلافها، ولمبالغته فى التقرب بما يرضى الخواطر الكريمة وينفع الناس بما يحضره من أنواع المتاجر وأصنافها. ولاستحقاقه لهذا الانعام، ولاختصاصه به دون الخاص والعام.

فليتلق ذلك بالحمد والابتهال، والله تعالى يبلغه من مزيد إنعامنا الآمال، والاعتماد فى معناه، على الخط الكريم أعلاه. إن شاء الله تعالى.

٢ — حياتهـــا

استمدت الكتابة حياتها هذا العصر من ديوان الانشا فى الرسائل الصادرة منه والرسائل الواردة اليه، وهو الينبوع الرسمى للانشاء، كما استمدتها خارجه من الرسائل المتداولة بين بعض الناس وبعض فى الأخوانيات وهو الينبوع غير الرسمى، والمقام يقتضينا هنا كلمة عن كل نوع قبل التكلم عن الطابع العام الذى كانت عليه الكتابة إذ ذاك.

ديوان الانشاء

علمت فيما سبق أن أول من أنشأ ديوان الانشا بمصر هو أحمد ابن طولون حينما استقل بها عن العباسيين، وأنه قد بقى بعد عود ابنه خمارويه إلى التبعية العباسية لبقاء الملك فى أسرته، وكذا على حكم الاخشيديين، وعنهم أخذه الفاطميون فعملوا على رفعة شأنه والتسامى به إلى ذروة نظيره فى بغداد، بل إلى أسمى من هذه الذروة، ومن ثم أسموه «دواوين الانشاء» بالجمع من باب التفخيم، وعلى هذا التسامى

بقى أيام بنى أيوب وورثه عنهم المماليك، وكان مقره أيامهم بقلعة الجبل فى قاعة تدعى قاعة الصاحب نسبة إلى رئيسـه الذى كان يأخذ هذا اللقب مجرداً، كما ترى ثم أخذه بعد باسم صاحب الدست الشريف، وبقى على هذا حتى جاء السلطان السعيد بن الظاهر بيبرس فخلع على صاحب ديوان الانشاء لقب « كاتب السر » واتخذ له أكبر أمرائه إذ ذاك، سيف الدين قلاوون ، ولمـا آل الملك إلى قلاوون هذا باسم المنصور، أبقى على هذا النظام وزاد فيه بأن خلع على كاتب السر لقب « الجناب الكريم » وأعطاه من المكانة ماجعله أول داخل على السلطان وآخر خارج من حضرته، ثم ماجعله يحضر معه حلف اليمين التى يؤديهـا ولاة الأقاليم، وعلى الجملة كان هو المتلقى الأول لجميع المكاتبات التى ترد من جميع أنحاء المملكة ومن الممالك التى تربطها بها علاقات ، كما كان المصدر لما تقتضيه هذه المكاتبات من ردود ، ولما يقتضيه تصريف شئون الدولة من ابتداء مكاتبات . وكان لكاتب السر نائب باسم « متولى ديوان الرسائل » يقوم مقامه إذا تخلف، كما كان له ولنائبه هذا معاون باسم « الدوادار » ومهمته أن يقدم إلى السلطان كل مايجب أن تؤخذ عليه العلامة السلطانية من الرسائل والتوقيعات والمناشير، ثم كان لهذا الأخير نائب يعرف باسم « حامل المزرة » . أما من عدا هؤلاء الأربعة من عمال الديوان فكانوا صنفين الأول كتاب الدست وهم كثرة يقوم كل منهم بعمل ، فمن كاتب لتحرير البيعات والعهود وما إليهما، إلى آخر يتولى كتابة الرسائل الخارجية، إلى ثالث يتولى كتابة المراسيم، إلى رابع يحرر المنشورات، إلى خامس وظيفته تحرير

الرسائل باللغات الاجنبية أو ترجمة الواردبها من بلادالفرنجة وغيرها.
والثاني كتاب الدرج وهم أقل مكانة من هؤلاء، ومهمتهم الاطلاع على التأشيرات التي يدونها كبار موظفي الديوان من أولئكم الأربعة الرؤساء أو من كتاب الدست على المكاتبات ليحرروا الأجابات عنها وفقا لتلك التأشيرات، وما كان من حق هؤلاء أن يبتدئوا المكاتبات كما يفعل كتاب الدست.

وقد كان يشترط فى كل لون من ألوان هؤلاء الكتاب جميعا، الصفات التي تؤهله لعمله وتجعله فيه الكفىء القدير ؛ وكلما سمت بالكاتب المنزلة زيد فيه عدد المؤهلات ، ومن ذلك يعلم ما كان ينبغى أن يتوافر من المؤهلات فى « الجناب الكريم كاتب السر » بصفته رئيس الديوان .

مما تقدم يعلم إجمالا أنواع الكتب التى كانت تصدر من الديوان، غير أن هذا الاجمال تدخل تحته تفاصيل رأينا أن ننوه عنها هنا للايضاح فنقول .

إن الرسائل الديوانية كانت تشمل فى الغالب الأنواع الآتيه :

١ — كتب البيعات التى كانت تحرر عندتولى الخلفاءوالسلاطين، وهنا فارق ينبغى أن ننبه إليه هو خلو هذه المملكة وحدهامن الكتب التى كانت تحرر بغيرها لأولياءالعهود، لما علمت من أن ملوكها ما كانوا يعبئون بنظام الوراثة الملكية .

٢ — الكتب التى كانت تحرر بولاية الوزراء وكبار الموظفين بحضرة الملك ونواب السلطنة الاداريين والقضائيين والعسكريين،

أخذا بنظام تعدد السلطات إلى هذه الثلاث مع انفصال بعضها عن بعض. ويقرب من هذه الكتب التى كانت تحرر بولاية المدارس أو مشيخة الجوامع أو التصدير للتدريس فيهما.

٣ — كتب الدعوة إلى الدين وعدم التنازع فيه، وكتب الحث على إطاعة أولياء الامور ونبذ الخلاف، وكذا الكتابة إلى من شقوا عصا الطاعة على السلطان أو نصبوا أنفسهم حربا على العامة بالعيث والاجرام.

٤ — كتب الحض على الجهاد ضد الصليبيين أو المغوليين، وتستلزم كتب إعلان الظفر والتهنئة بالفتح، وكذا كتب الاخبار عن الهزيمة بتخفيف وقعها واستنهاض الهمم إلى محو آثارها، ويتصل بهذه ما كان يحدث أحيانا من مكاتبات صلح أو هدنة.

٥ — كتب البشارة: ومنها العام الموسمى كالبشارة بوفاء النيل وبالاعياد القومية غير الدينية، والخاص الطارىء كالبشارة عن الملك بولادة ولد أو قدوم من حج أو إبلال من مرض أو غير هذه مما يستدعى الأخبار للتبشير.

٦ — كتب التنبيه على شرف المواسم الدينية والاحتفال بها والمشاركة بالسرور فى مواكبها وإحياء لياليها.

٧ — كتب الانعام بالالقاب والخلع والتشاريف: ومنها الكتب التى كانت ترسل إلى نواب السلطة وغيرهم بالهدايا والالطاف ولاسيما الخيل والجوارح.

٨ — رسائل الغزو: وفيها كان يدون الكاتب كل ما يخص الغزوة

منذ استعداد السلطان للخروج إليها إلى حيث عودته منها مع ما بينهما من وقائع وغيرها ، ثم رسائل الصيد وكانت على نمط رسائل الغزو ، إلا أن هذه كانت لمطاردة حيوان بر وطير سماء ، وتلك كانت لمحاربة جيوش ومجالدة أقران .

٩ — مكاتبات المسامحات المالية والامتيازات التجارية وجوازات المرور فى السلطنة للأجانب عنها ، لما كان للتجارة حينذاك من عظيم شأن جعلها أكبر مصدر للايراد .

١٠ — وأخيرا الكتابة عند ظهور الآيات السماوية كسقوط نجم والأحداث الارضية كزلزال ، بما يكشف للعامة عن أسبابها وينزع من قلوبهم الهلع لها .

إلى غير تلك من ألوان المكاتبات الصادرة عن ديوان الانشاء ابتداء ، ولا تقل عنها كما المكاتبات الصادرة عنه ردا على ما يرد عليه من داخل السلطنة أو خارجها ، وتجد أمثلة عدة من كل هذه الالوان للرسائل فى الجزء الثامن من كتاب صبح الاعشى مع رسالتى التصدير والمسامحة السابقتين .

هذا . وقد أنجبت دولة المماليك بهذه الحركة الانشائية الدائبة عددا كبيرا من كبار الكتاب الذين عظمت بهم الكتابة وارتفعت على أسنة أقلامهم مكانة الانشاء

ويكفى أن نذكر هنا منهم أولئك الذين تولوا لتلك الدولة رياسة الديوان وهم .

١ — فخر الدين إبراهيم بن لقمان الاسعردى — كان آخر

رؤساء الديوان فى العهد الايوبى ، ورأسه بعده للمعز أيبك وابنه المنصور على ، وللمظفر قطز ، وللظاهر بيبرس وولديه السعيد محمد والعادل سلامش ثم للمنصور قلاوون .

٢ — فتح الدين بن عبد الظاهر — كتب للمنصور قلاوون ولابنه الاشرف خليل

٣ — تاج الدين بن الاثير . كتب للاشرف خليل

٤ — شرف الدين بن فضل الله . كتب للاشرف خليل وللناصر محمد وللعادل كتبغا وللمنصور لاجين وللناصر محمد ثانية وللمظفر بيبرس ثم للناصر محمد ثالثة .

٥ — علاء الدين بن تاج الدين بن الاثير . كتب للناصر محمد

٦ — محيى الدين بن فضل الله المذكور . كتب للناصر محمد

٧ — شرف الدين بن الشهاب محمود . كتب للناصر محمد

٨ — شهاب الدين بن محيى الدين بن فضل الله . كتب للناصر محمد

٩ — علاء الدين بن محيى الدين بن فضل الله . كتب للناصر محمد ، ولأبنائه المنصور سيف الدين ، والاشرف علاء الدين ، والناصر شهاب الدين ، والصالح علاء الدين ، والكامل شعبان ، والمظفر حاجى والناصر حسن ، والصالح صلاح الدين ، والناصر حسن ثانية . ثم لحفيديه المنصور محمد والاشرف شعبان .

١٠ — بدر الدين بن علاء الدين بن محيى الدين بن فضل الله . كتب للاشرف شعبان ولولديه المنصور على والصالح أمير حاج ثم للظاهر برقوق .

١١ ـ أوحد الدين عبد الله بن اسماعيل التركماني. كتب للظاهر برقوق

١٢ — علاء الدين علي بن عيسى الكركي. كتب للظاهر برقوق

١٣ ـ بدر الدين محمود بن الكلستاني. كتب للظاهر برقوق.

١٤ ـ فتح الدين بن فتح الله بن مستعصم التبريزي. كتب للظاهر برقوق ولابنه الناصر فرج

١٥ ـ سعد الدين بن غراب. كتب للناصر فرج.

١٦ — فخر الدين بن المزوق ـ كتب للناصر فرج وللمنصور عز الدين وللناصر فرج ثانية.

١٧ — ناصر الدين محمد بن البارزي ـ كتب للمؤيد شيخ المحمودي،

١٨ — كمال الدين محمد بن محمد بن البارزي ـ كتب للمؤيد شيخ ولولده المظفر، وللظاهر ططر، واولده الصالح محمد، ثم للاشرف برسباى.

١٠ — جمال الدين يوسف بن الكركي ـ كتب للاشرف برسباى

٢١ — شمس الدين بن الهروي ـ كتب للاشرف برسباى

٢٢ — نجم الدين عمر بن حجا. كتب للاشرف برسباى

٢٣ — شمس الدين محمد بن مزهر. كتب للاشرف برسباى

٢٤ — جلال الدين محمد بن محمد بن مزهر ـ كتب للاشرف برسباى.

٢٥ — الشريف، شهاب الدين الدمشقي. كتب للاشرف برسباى

٢٦ شهاب الدين أحمد بن السفاح الحلبي. كتب للاشرف برسباى.

٢٧ — كريم الدين عبد الكريم . كتب للاشرف برسباى

٢٨ - محب الدين بن الاشقر . كتب للاشرف برسباى وللظاهر جقمق وللمنصور عثمان ، وللاشرف إينال

٢٩ ـ صلاح الدين محمد بن الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله كتب للاشرف برسباى .

٣٠ - الصاحب بدر الدين حسن بن نصر الله - كتب للاشرف برسباى ؛ ثم لابنه العزيز يوسف ، وللظاهر جقمق

٣١ — محب الدين بن الشحنة — كتب للظاهر جقمق وللاشرف إينال وولده المؤيد أحمد ثم للظاهر خشقدم .

٢٢ — برهان الدين بن الديرى — كتب للمؤيد أحمد إينال وللظاهر خشقدم

٢٣ — أبو بكر بن مزهر - كتب للظاهر خشقدم وللظاهر بلباى وللظاهر تمر بغا وللاشرف قايتباى .

٢٤ بدر الدين بن أبي بكر بن مزهر - كتب للاشرف قايتباى وابنه الناصر محمد وللظاهر قانصوه الأشرفى وللأشرف جان بلاط

٣٥ — صدر الدين بن يحى بن شاكر بن الجيعان — كتب للاشرف جان بلاط وللعادل طومان باى

٣٦ — بدر الدين محمود بن أجا الحلبي — كتب للعـــادل طومان باى

٣٧ - محي الدين الحلبى كتب لقانصوه الغورى وللاشرف طومان باى

وهنا ظاهرة ينبغى أن نسجل ويستنبط منها شىء ، هى أن عدد رؤساء الديوان فى عهد المماليك الاتراك كان عشرة، فى حين صعد على عهد المماليك الشراكسة إلى سبعة وعشرين، مع تساوى مدتيهما فى الحكم، إذ هى فى كليتهما نحو القرن والثلث كما علمت ، تلك هى الظاهرة ، أما الشىء الذى يراد أن يستنبط فهو أن الديوان فى عهد الأولى كان أكثر استقرارا وأركن ثباتا وبعبارة أصح كان فى الثانية قلقا مضطربا لاحظ له من ركانة وثبات، ومن ثم كثر فى العهد الاول نشاطه وزاد إنتاجه .

الأخوانيات

تعددت أنواع الرسائل الاخوانية فى هذا العهد حتى جاوزت العشرين نوعا واندرج تحت بعض الأنواع من الضروب ما جاوز العشرة، كما اندرج تحت بعض الضروب من الفصول ما قارب هذا العدد الاخير، على ماذكر القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى الجزء التاسع .

فكان من أنواعها التهانى والتعازى والاهداء والاستهداء والزيارة والاستزارة والاخبار والاستخبار والتشوق والتودد والشفاعة والاستعطاف والاعتذار والشكوى والاستماحة والشكر والعتاب والعيادة والمدح والذم والتهكم والمداعبة وخطبة النساء وغير ذلك .

وكان مما اندرج تحت التهاني مثـــلا من الضروب، التهنئة بالولايات وبكرامات السلطان وبالعود من حج ، والقدوم من سفر وبالاعياد والمواسم والشهور والسنين وبالزواج والتسرى وبالاولاد وبالشفاء

من مرض وبالنجاة من هم وبنزول الدور المستجدة وبقرب المزار وغيرها، ثم كان مما اندرج تحت التهنئة بالولايات مثيلا من الاصناف، التهنئة بنيابة السلطنة والامارة والحجابة ورياسة القضاء والجند والاعمال والتقدمة على الرجال وغيرها مما يدخل تحت كلمة ولاية بأوسع معانيها ، وللتعـــازى من الضروب ولضروبهـــا من الاصناف الذى ذكرنا فى نحو التهانى . أما الانواع الاخرى فأقل من هذين ضروبا كما أن ضروبها أقل من ضروب تلك أصنافا، على أن التوليد فى هذه وهذه مما تفتقه الحاجة وتتناوله صناعة المنشى الاديب ، وقدسلفت لك بالنماذج تهنئة بالعودة الى عمل وتجد لكل هذه الانواع على ما تحتها من ضروب وتحت الضروب من أصناف نماذج كثيرة بالجزء التاسع المذكور .

هذا وقد تعدت الرسائل الاخوانية كل هذه الالوان التى ذكرنا إلى ألوان أخرى كان لغرب الدولة الفضل فيها وفى الاكثار منها على شرقها منذ العهدين الفاطمى والايوبى واليك بعضها :

١ - رسائل الصدقات للملوك والرؤساء والاعيان وهى عبارة عن تدوين مثل ما كان يقال قديما فى خطبة النكاح فى رسالة تحفظ لتكون أبقى وأخلد .

٢ - رسائل العمرات، وهى ما كانت تكتب على لسان من يحج أو يعتمر من هؤلاء المذكورين تخليدا لذلك وشكرا الله على ما أنعم وتفضل .

٣ . رسائل الاجازة بالفتيا أو الرواية . وكان يكتبها ذوو المكانة

من كبار الشيوخ العلماء أو الأعلام الأدباء لمن يأنسون فيه من طلبتهم درجة النضج للافتاء أو الرواية فى علم أو أدب أو فرع أو كتاب، وهذه كانت تقوم لهم مقام الشهادات العلمية الآن .

٤ — رسائل التقريظات ، وكان يكتبها كتاب المؤلفين لصغارهم على مابدءوا يخرجونه من تصانيف، تعريفا بكتبهم وإذاعة لفضلهم، وقد رأيت بالنماذج رسالة من هذه الألوان عن إجازة برواية ، وتجد بالصبح كثيرا من النماذج لثلاثتها الباقية فارجع اليها .

هذا وكما ذكرنا طائفة من الكتب الأدبية حين كنا نتكلم عن الأدب كعلم اعترافا بجهود الأدباء العلماء ، فانا نرى من الحتم أن نذكر هنا طائفة أخرى لجهود الأدباء المنشئين جاءت نصوصا خالصة للأدب فى كتب بأعيانها، اعترافا بالجهود المستقلة لهؤلاء ، غير مغفلين فى الذكر ما جاء من هذه الكتب متعرضا لمصطلحات الانشاء مع تلك النصوص، على الترتيب فى التاريخ :

١ ـ مقامات الشاب الظريف المتوفى سنة ٦٨٨ ومنها نسخ بباريس وبرلين وتوجد إحداها مطبوعة مع ديوان التلعفرى .

٢ ـ مقامة فى مصر والنيل لابن عبد الظاهر المتوفى سنة ٦٩٢ ومنها نسخة ببرلين .

٣ ـ حسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين بن فهد الحلبى المتوفى سنة ٧٢٥ وقد طبع بمصر .

٤ ـ التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٨ وهى سبع رسائل فى مراسم الملك ومايتعلق به وقد طبع بمصر

وله الشتويات وهى مجموعة رسائل فى الشتاء بليدن، والنبذة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية بمكتبة فلايشر .

٥ — منشئات الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وهى مجموعة مقالات ورسائل على لسانه أو لسان غيره ومعها طائفة من التواقيع والمراسيم والمناشير ومنها نسخة بدار الكتب ، وله أيضا « ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء » وهو مجموعة قطع بليغة من النثر والشعر جمعها للملك الأشرف ومنه نسخة بخطه فى فينا .

٦ — تعليق الديوان لابن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ وهى مجموعة رسائل ومنه نسخة ببرلين .

٧ — مطلع النيرين لبرهان الدين القيراطى المتوفى سنة ٧٨١ وهو ديوان يشتمل على نظم ونثر وفيه مراسلات دارت بينه وبين ابن نباتة المذكور نثرية وشعرية وهو مطبوع بمصر .

٨ — منشئات الوزير أبى الفرج بن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ ومنه نسخة بدار الكتب .

٩ — صبح الأعشى فى صناعة الانشا للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ فى أربعة عشر مجلدا ضخما طبع دار الكتب ، وهو أطول كتاب فى موضوعه وأوفاه فى نوعه ، وقد قسمه صاحبه الى مقدمة وعشر مقالات وخاتمة، وقسم كلا من هذه الاثنتى عشرة الى أبواب كما قسم كل باب إلى عدة فصول، محافظا على أن تكون تلك الأمهات لأصول الموضوعات ، والابواب لفروعها والفصول للمسائل المندرجة تحت الفروع ؛ فوفى بذلك الانشاء حقه علما وتاريخا ونماذج . وله « ضوء

الصبح » وهو مختصر الصبح فى مجلدين طبع أولهما بمصر ومنه نسخة بدار الكتب مع ثانيه غير المطبوع .

١٠ — قهوة الانشاء لابن حجة الحموى المتوفى سنة ٨٣٧ وهى مجموعة مراسلات ومكاتبات لمعاصريه من الكتاب ومنها نسخة بدار الكتب .

١١ — مقدمة فى صناعة النظم والنثر لشمس الدين النواجى المتوفى سنة ٨٥٩ ومنها نسخة بباريس .

١٢ — مقامتان لنور الدين بن سودون المتوفى سنة ٨٧٨ ومنها نسخة ببرلين .

١٣ - مقامات السيوطى المتوفى سنة ٩١١ وهى مطبوعة بمصر .

إلى غير ذلك من آثار الأدباء المنشئين فى الترسل وصناعة الانشاء .

وبعد فاليك بعد الذى تقدم عن ناحيتى الرسالة من ديوانيات واخوانيات كلمة عما كان لأسلوب الكتابة فى هذا العهد من طابع ورسوم .

طابع الأسلوب ورسمه

ساد أسلوب ابن العميد الذى اختطه بالمشرق مصر والشام على يد القاضى الفاضل آخر كتاب الفاطميين وأول كتاب بنى أيوب ، سيادة مطلقة على ما دخله من شدة التزام للسجع وكبير إغراق فى المحسنات ، وكان مما قوى هذه السيادة وساعد عليها أن الظروف التى اقتضتها بالشرق كانت توجد لها نظائر فى الغرب ، من اتساع الثروة والولع بالزخرف منذ أواخر العهد الفاطمى إلى نهاية الأيوبى ، حتى اذا جاء عهد المماليك كان الزخرف قد بلغ أشده وأغرقت ألوانه القصور وما

تحوى من أثاث ورياش، لما كان من النهوض الكبير بفن العمارة، والافتتان البالغ فى إخراج التحف والطرف، فساير كتابها تلك الظاهرة فى أسلوبهم وملئوا الكتابة بعد التزام السجع بألوان البديع، واذا كان هناك من فرق بينهم وبين أسلافهم فلن يكون هذا الانزول مستواهم عنهم فى مفردات اللغة وفى طواعية الأسلوب، ومن ثم بدا التكلف على عباراتهم والهزال فى معانيهم أكثر مما بدا على أوائلهم.
وهذه أهم الظواهر لطابع الأسلوب اذ ذاك.

١ — التزام السجع على ما كان لهم فى فقره من تصرف فى الطول والقصر يجمع بين الفقرتين أو يخالف بينهما كما رأيت فى الرسائل الأربع بالنماذج سيان فى ذلك الديوانية والاخوانية، فمن الاطالة الباسقة فى الفقرتين معا قول ابن نباتة « وعلى أن أجزل الهناء وقد شمل ظله وقد كمل بابن الفضل فضله وقد بهر سناؤه وسناه، وقد تسعب القريب والبعيد فأن أجدى على مصر مورده فقد جادت على الشام سماه » ومنها فى الثانية دون الاولى وهو كثير قول الصفدى « وبعد فان علم الرواية من محاسن الاسلام، وخصائص الفضلاء الذين تخفق لهم ذوائب الطروس وتنتصب رماح الاقلام » ومنها فى الاولى دون الثانية وهو قليل قول القلقشندى « لا زالت صدقاته الشريفة تخص المجالس بمن إذا جلس صدر مجلس كان لرتبته أجمل صدر يجتبي من علماء التفسير، واذا سلك سبيل الايضاح كان كلامه كلام تفسير » وقل أن تجد تساوى الفقرتين فى كتابتهم مع عدم الطول كالذى تراه فى آخر الرسالة الرابعة من قول منشئها « والاعتماد فى معناه، على الخط الكريم أعلاه »

وكأن بعض الساجعين كان يشعر بالاطالة اذا جمع فيها بين الفقرتين فيحدث سجعا داخليا يخفف من وقع هذا الطول كقول الصفدى «فطاب الاجازة عنى ، وأنا أحق بالاخذ عنه ، واستدعى ذلك منى . «ورب حامل فقه الى من هو أفقه منه» حيث قابل بنى عنى ومنى . والمقابلة الأصيلة بين عنه ومنه ؛ كما كان بعضهم يجعل هذا السجع فى احدى الفقرتين دون الاخرى كقول ابن نباتة «وعلى أن أجزل الهناء وقد شمل ظله ، وقد كمل بابن الفضل فضله ، وقد بهر سناؤه وسناه ، وقد تسعب القريب والبعيد فان أجدى على مصر مورده فقد جادت على الشام سماه»

٢ – الاكثار من الجناس كقول ابن نباتة «تقبيلا يود لو شافه بشفاهه مورد الجود من الانامل ، وكاثر بثغره عند المثول للتقبيل ثغور الاماثل» وقول الصفدى «واذا أنعم على الاديب بذوق أتى فى نظمه ونثره بالعجب العجاب ، واذا وهب البليغ فطرة سليمة لم يكن على حجاه حجاب» وقول القلقشندى «لأنه الامام الذى لا تسامى علومه ولا تسام ؛ والعلامة الذى لا تدرك مداركه ولا ترام»

٣ – الالمام بالطباق أو المقابلة أو مراعاة النظير كقول ابن نباتة «لا زالت الممالك متحفة بيمن مولانا ظاعنا ومقيما ، متصفة بحمده وحمد سلفه الكريم حديثا وقديما» وقول الصفدى «كأنما هو فى حلة الخطابة بدر فى غمامه ، أو منبره غصن وهو فوقه حمامة»

٤ – الاتيان على قلة بالتورية أو الاستخدام ، كقول ابن نباتة «بوصول مولانا ومن معه الى مساكن العز ساكنين» فانه يقصد بمساكن العز معناها البعيد اذ كانت علما على ديار آل فضل الله لا معناها

اللغوى القريب ، وقول الصفدى « وحذر فكانت أسجاعه كألحان اسحق وسامعه يبكى بأجفان يعقوب » حيث أراد المدلول البعيد لاسحق هنا وهو الموصلى لا القريب المتبادر وهو ابن ابراهيم لذكر أخيه يعقوب ، وكقول القلقشندى فى التصدير بالتفسير الذى كتبه للشاب التائب شهاب الدين الانصارى « فان الشاب التائب حبيب الرحمن » اذ يقصد شهاب الدين نفسه لا كل من اتصف بهذين الوصفين من عامة الناس .

٥ — كثرة الاستشهاد بالقرآن الكريم والاقتباس منه كقول ابن نباتة « وما مزاج كلمه إلا من تسنيم وفى ذلك فليتنافس المتنافسون » وقوله « فسقى طرس الانشاء الذى ابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم » وكذلك قوله « تالية على مهمات الملك بصحبة بيته الشريف وكان فضل الله عليك عظيما » وقول القلقشندى « والعارف يهدى طريقه الذى إذا قال ، قال الذى عنده علم من الكتاب » .

٦ — الاستشهاد بالشعر أو تضمينه ؛ من نظم صاحب الرسالة أو غيره ، فمن الاستشهاد قول الصفدى فى آخر رسالته « ونعم فقد استخرجت الله تعالى وأجزت له مايجوز لى تسميعه من مروياتى ، وذكرت له شيئا عن أشياخى ومصنفاتى

إجازة قاصر عن كل شىء ‏ ‏ يسير من الرواية فى مفازه
لمن ملك الفضائل واقتناها ‏ ‏ وحاز مدى العلا سبقا وجازه

ومن التضمين قول القلقشندى فى آخر رسالته مضمنا قول النابغة الجعدى « والله تعالى يرقيه إلى أرفع الذرا ، ويرفع مجلسه السامى على محل الثريا ، وانا لنرجو فوق ذلك مظهرا »

٧ — كثرة الاشارات التاريخية كقول الصفدى « وأتى فيه بيدائع ماتساوى ابن الصيرفى عندها بحبه » وقوله « وحذر فكانت ألحانه كألحان إسحق وسامعه يبكى باجفان يعقوب » وقوله « ولو رآه ابن نباتة ما أورقت بالفصـــــاحة أعواده ؛ أوابن المنير مارقت بالبلاغة أبراده »

٨ — استخدام المصطلحات العامية ولا سيما مصطلحات النحو والصرف، وذلك كقول الصفدى « ماأجاب مجيب لمن استدعى، وعلمت إن فى المبتدأ نصبا ولم تغير على الخبر رفعا » وقول القلقشندى « والماهر الذى استحق بمهارته التصدير ، والجامع لفنونه المتنوعة جمع سلامة لاجمع تكسير » .

٩ — الأكثار من ألقاب التعظيم وعبارات التفخيم، على العكس مما كانت عليه الحال أيام الفواطم والأيوبيين بمصر والشام، وعلى الشبه مما كانت عليه بالمشرق أيام آل سلجوق ، وماذلك إلا للتأثر بطبيعة العناصر الأعجمية وإشباع النهم التركى فى هذا الباب ؛ ومن هذا مارأيت فى الرسالة الرابعة من قول منشئها « أن يسامح الجناب العالى الصدرى الكبيرى المحترمى المؤتمنى الأوحدى الأكملى الرئيسى العارفى المقربي الخواجكى الشمسى ، مجد الاسلام والمسلمين ؛ شرف الأكابر فى العالمين ، أوحد الامناء المقربين » إلى آخر ماجاء فيها .

١٠ — الأطالة الباسقة فى الرسائل : ديوانية كانت أم إخوانية، وذلك بالبسط فى أوائلها بالقاب التعظيم وعبارات التفخيم ، والافاضة فى أواخرها بجمل الدعاء وعبارات الابتهال ، واستخدام

كل ألوان الاطناب فيما بين هذه وتلك من صلب الموضوع ، حتى لتبلغ الرسالة الصفحات فى غير الهام من الأمور ، ولقد تبارى الكتاب فى ذلك الاطناب حتى نسوا الايجاز ولم نعد نعرف عنهم المساواة إلا فى النادر القليل. ومنه تلك الرسائل الأربع التى عثرنا عليها للاستشهاد بعد طول بحث وكبير معاناة . أما طوال الرسائل فهى التى تطالع القارىء وتملأ عليه أفقه أول ماينظر فى كتب الانشاء .

هذه سمات عشر لطالع الأسلوب الكتابى فى ذلك العصر ، تريك فى جملتها أن الكتابة كانت عندهم صناعة ، وكانت صناعة بديع أكثر من أية صناعة أخرى ، ولذلك لم يك غريبا حين ألف شهاب الدين الحلبي كتابه المذكور « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » أن يجعله كلاما على البديع ومحسناته من لفظية ومعنوية لأنهما الوسيلة الحسنة وفى نظره إلى صناعة الانشاء إلا كلاما قليلا فى آخره أبان فيه بعض المصطلحات الرسمية فى الرسائل الديوانيه .

أما رسم الاسلوب الاصطلاحى فى المبادىء والخواتيم إذذاك فيمكن أن يقال فيه ، إنه كان مددا لسلفه الايوبي ، من حيث التجرد مما كان دسه الفاطميون فيه من ألوان التشيع ولكن دخلته زيادات وتفاصيل جعلته يختلف باختلاف المكتوب إليه كما ترى بعد .

لقد كثرت على هذا العصر رسوم الكتابة وتعددت أنواعها ، وخاصة فى الرسائل الديوانية دون الاخوانية ، وبدت تلك الكثرة وهذا التعدد فى المبادىء أكثر مما بدت فى الخواتيم ، وكان منشأ ذلك اختلاف المكتوب إليه فى المكانة والمقام وفيما تبع ذلك من رسميات الألقاب .

١ — ففى المكاتبة إلى الخليفة العباسى الذى كان يلقب مقره بالديوان العزيز كان يقال مثلا « أدام الله أيام الديوان العزيز المولوى السيدى النبوى الامامى . . . فلان » ثم يدعى له ويعظم ويقال بعد ذلك « العبد المملوك أو الخادم يقبل الأرض أو العتبات أو مواطن المواقف » ويدخل بعد هذا فى موضوع الرساله ، وكلما احتاج الأمر إلى ذكر الخليفة عبر عنه بالمواقف المقدسة أو المشرفة أو بالمقام الأشرف أو الجناب الأعلى أو بأمير المؤمنين ، ثم يختم الكتاب بالدعاء ثانية وينتهى بمثل كلمة أنهى أو أتم أو مافى معناها .

٢ — وفى المكاتبة إلى السلطان الذى كان مجلسه يلقب بالمقام العالى السلطانى كان يقال مثلا . أعز الله تعالى المقام العالى السلطانى الملكى الشريفى ... فلان زاده الله شرفا وعلوا . ثم يذكر اسم المكتوب منه ويدخل بعده فى الموضوع ، وفى الختام يعاد الدعاء بمثل لازال ملكه عاليا وشرفه ناميا إن شاء الله تعالى .

٣ — وتلى هاتين المكاتبة إلى نواب السلطنة بمصر وكانوا أربعة ، أولهم النائب الكافل وهو نائب السلطنة بالحضرة ، وكان أعلاهم مكانة وأرفعهم رتبة ؛ ويغلب أن يكون أتابك العساكر ، وما كان يكتب إليه إلا إذا كان السلطان مريضا أو مسافرا فى غزاة لعدو أو سرحة لصيد أو زورة لنيابة ، وكان مجلسه يلقب بالمقر الكريم ، ويقال فى الكتابة إليه مثلا ؛ أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم العالى الأميرى الكافلى فلان ، عز الاسلام والمسلمين ، سيف الأمراء فى العالمين ؛ ثم يدعى له بالدعاء المناسب للموضوع وبعد أن يتم الموضوع ينتهى بمثـــل

«ومرسومنا المقر الكريم أن يتقدم أمره بكذا وكذا فيحيط علمه بذلك والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه» وبمثل هذا اللون من المكاتبة كان يكتب إلى نواب الشام على أن يقال بدل كلمة «الكافلى» كافل الممالك الشامية المحروسة . أما الثلاثة الآخرون وهم نائب الاسكندرية بها ونائب الوجه القبلى بسيوط ، ونائب الوجه البحرى بدمنهور ، فكان مجلسهم يلقب بالجناب العالى ويقال فى الكتابة لهم ، ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى نائب السلطنة الشريفة بكذا فلان ويدعى له بما يناسب ويدخل فى الموضوع ويختم بالدعاء . وكانت تتنزل رسوم الكتابة من هؤلاء إلى الكشاف الذين كانوا أربعة بكل وجه اثنان ، وكان مقرهم يلقب بالمجلس السامى ، فالى عمال الأقاليم وكان مقرهم يلقب بمجلس الأمير .

٤ — ثم كان يكتب لأمراء الجند بمثل ذلك ، فكان مقدمو الألوف منهم يلقبون بالمقر الكريم ، ومقدمو المئات بالجناب العالى ، ومقدمو العشرات بالمجلس السامى . ومن دونهم من سائر مقدمى الجند بمجلس الامير أسوة بنظرائهم الاربعة السالفين .

٥ — فأما الوزراء ومنهم كاتب السر وناظر الخاص وغيرهما فكان مقرهم يلقب بالمجلس العالى ، وأما أرباب المناصب الدينية كقاضى القضاة والمحتسب وغيرهما فكانت ألقاب مقارهم هى أسماء وظائفهم .

٦ — أما الكتابة إلى الممالك الاجنبية فكان يراعى فى الكتابة إلى كل منها أسلوب الكتابة فيها من حيث الابتداء والخطاب والاختتام وغير ذلك .

وبعد فهذا مثل موجز للون واحد من تلك الألوان هو اللون الأخير، وقد اخترت أن يكون الملك عربي حتى يكون على جانب من رفعة الاسلوب، وليدل مع ذلك على أن ديوان الانشاء بمصر ولا سيما فى أوائل هذا العهد المملوكى كان قديرا على ذلك الارتفاع، وهذا المثل صادر عن الملك المظفر قطز إلى الملك المنصور باليمن عن هزيمة التتار بالشام ونصه:

أعز الله تعالى أنصار المقر الشريف العالى المولوى السلطاني الملكي المنصورى وأعلى مناره، وضاعف اقتداره. إنه لما كان النصف من شهر رجب الفرد فتح الله تعالى بنصر المسلمين على أعداء الدين،

من كل من لولا تسعر بأسه — لاخضر جودا فى يديه الأسمر

فصدرت هذه التهنئة إليه راوية للصدق عن اليوم المحجل الاغر،

يوم غدا بالنقع فيه يهتدى — من ضل فيه بأنجم المران

فى أذن الدهر من وقعة صمم، وفى عرنين البدر من نقعه شمم، ترفعه رواة الأسل عن الأسنة، ويسنده مجر العوالى عن مجر الأعنة، أما النصر الذى شهد الضرب بصحته، والطعن بنصيحته، فهو أن التتر خذلهم الله تعالى استطالوا على الأيام، وخاضوا بلاد الشام، واستنجدوا بقبائلهم على الاسلام،

سعى الطمع المردى به لحتوفهم — ومن يمسكن ذيل المطامع يعطب

فاعتاضوا عن الصحة بالمرض، وعن الجوهر بالعرض، وقد أرخت الغفلة زمامهم، وقاد الشيطان خطامهم، وعاد كيدهم فى نحورهم «ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا»

راموا الامور فقد لاحت عواقبها   بضد ما أملوا فى الورد والصدر
ظلوا حيارى وكأس الموت دائرة   عليهم شرعا فى الورد والصدر
وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم   بالسمهرية مثل الوخز بالابر

لاجرم أنهم لسن الندم قارعون ، وعلى مقابلة إحساننا بالاساءة نادمون ،

تدرعوا بدروع البغى سابغة   والمرء يحصد من دنياه مازرعا

فاقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانيهم فى بحار الآمال ، فتلك آمال خائبة ، ومراكب للظنون عاطبة ، وأقلعوا فى البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه ، وساروا وللشيطان فيهم وساوس ، تغرهم أمنية الظنون الحوادس ، هذا وعساكر المسلمين متوطنة فى مواطنها ، جاثمة عقبانها فى وكور أقنانها ، رابضة آسادها فى غيل ظباها ما تزلزل لمؤمن قدم الا وقدم إيمانه راسخه ، ولا ثبتت لأحد حجة الا وكانت الجمعة لها ناسخة ، ولا عقدت برجمة ناقوس إلا وحلها الآذان ، ولا نطق كتاب إلا وأخرسه القران ، ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل الى الكفار ، وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين ، إلى أن خلط الصباح فضته بذهب الأصيل وصار اليوم كأمس ، ونسخت آية الليل بسورة الشمس ، واكتحلت الاعين بمرود السبات ، وخاف كل من المسلمين والكفار اصدار البيات

ينام باحدى مقلتيه ويتقى   بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

فلما تراءت العين بالعين ، واضطرمت نار الحرب بين الفريقين ، لم تر إلا ضربا يجعل البرق نضوا ، ويترك فى بطن كل من المشركين شلوا ، حتى صارت المفاوز دلاصا ، ومراتع الظبا للظبا عراصا ، واقتنصت

آساد المسلمين المشركين اقتناصا ، ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مناصا . فلا روضة الادرع ولا جدول إلا حسام ، ولا غمامة الانقع ولا وبل الاسهام ، ولا مدام الا دماء ولا نغم الاصهيل ، ولا معربد إلا قاتل ولا سكران الا قتيل ، وحتى صار كافور الدمن شقيقا ، وتلون الحصباء من الدماء عقيقا ، وضرب النقع فى السماء طريقا ، وازدحمت الجنائب فى الفضاء فجعلته مضيقا ، وقتل من المشركين كل جبار عنيد ، ذلك بما قدمت أيديهم وما ربك بظلام للعبيد

ثانياً — الشعر

١ — نماذجه

١ — قال جمال الدين أبو بكر محمد بن نباتة المصرى المتوفى سنة ٧٦٨ يهنىء الملك الأفضل صاحب حماة ويعزيه فى أبيه الملك المؤيد أبى الفداء إسماعيل الأيوبي ، وكان المؤيد قد خدم الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو مبعد من مصر إلى قلعة الكرك بالشام فوعده الناصر إذا عاد إلى الملك أن يبقى حماة وراثية فى بيته ؛ ولما أن عاد وفى بما وعد، على الرغم من أن المؤيد من بنى أيوب، وعاش يجله و يحترمه ويستقبله إذا قدم مصر استقبال الملوك قال .

هناء محا ذاك العـــزاء المقدما ... فما عبس المحزون حتى تبسما

ثغور ابتسام فى ثغور مدامع ... شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما

نرد مجارى الدمع والبشر واضح ... كوابل غيث فى ضحى الشمس قد همى

سقى الغيث عنا تربة الملك الذى ... عهدنا سجاياه أبر وأكرما

ودمت يد النعى على الملك الذى ... تدانت له الدنيا وعز به الحمى

مليكان هذا قد هوى لضريحه ... برغمى وهذا للأسرة قد سما

ودوحة ملك شادوى تكافأت ... فغصن ذوى منها وآخر قد نما

فقدنا لأعنـــاق البرية مالكا ... وشمنا لأنواع الجميـــل متمما

إذا الافضل الملك اعتبرت مقامه ... وجدت زمان الملك قد عاد مثلما

وناداه ملك قد تقـــادم إرثه ... فقام كما نرضى العلا وتقـــدما

كأن ديار الملك غاب إذا انقضى ... به ضيغم أنشا به الدهر ضيغما

نهضت فما قلنا سيادة معشر ... تداعت ولا بنيان قوم تهدما
فان يك من أيوب نجم قدانقضى ... فقد أطلعت أوصافك الغر أنجما
وإن تك أوقات المؤيد قد خلت ... فقد جددت علياك وقتا وموسما
هو الغيث ولى بالثناء مشيعا ... وأبقاك بحرا للمواهب منعما
لك الله ما أبهى وأبهر طلعة ... وأفضل أخلاقا وأشرف منتمى
بك انبسطت فيك التهانى وأنشأت ... ربيع الهنـا حتى نسينا المحرما
وباسمك فى الدنيا استقرب محاسن ... وبأس كما يمضى القضـاء محتما
وفضل به الالفاظ للعجز أخرست ... وعز به قلب الحسود تـكلما
يراعك يوم السلم ينهل ديمة ... وسيفك يوم الحرب ينهل فى الدما
وذكر ندى كفيك يدني من الغنى ... ولثم ثرى نعليك يروى من الظما
لك الملك إرثا واكتسابا فقد غدا ... كلا طرفيه فى السيادة معلما
ومثلك إما للسرير منعمـــــا ... يثرب وأما للجود مطهما

***

أيا ملكا قد أنجد الناس عزمه ... فأنجد مدح الناس فيه وأتهما
سبقت لك المداح قدما وبادرت ... يدا كلمى فاستلزمت منك ملزما
ليالى أنشى فى أبيك مدائحا ... وفيك فأروى مسند الفضل عنكما
وأغدو بأنواع الجميل مطوقا ... فأسجع فى أوصـــافه مترنما
وأستوضح العلياء فيك فراسة ... بملكك لا أعدى عليه منجما
فعش للورى واسلم سعيدا مهنئا ... لحظ الورى فى أن تعيش وتسلما
وسر فى أمان الله قدما بفضله ... أسر الورى مسرى وأيمن مقدما
أعدت زمان البشر والجود والثنا ... الى أن ملأت العين والانف والفما

٢ — وقال يمدح الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون ويشيد بمناقبه ومآثره من مطولة ابتدأها بالغزل

بدت فى رداء الشعر باسمة الثغر ... فعوذتها بالشمس والليل والفجر

وقبلتها مصرية حلوة اللمى ... أكرر فى تقبيلها السكر المصرى

أرى الشمس منها فى العشاء منيرة ... ومن صدها عنى أرى النجم فى الظهر

يذكرنى عهد الوفا ما نسيته ... ولكنه تجديد ذكر على ذكر

زمان الصبا والقرب لا نحذر النوى ... ولكن نقضى الحال أحلى من التبر

وأما وقد ضاء المشيب بمفرقى ... فبالشيب لا بالطوع صرنا إلى الهجر

واني لمشتاق الى ظل روضة ... على النيل أروى العيش فيها عن النضر

إلى مصر يحلو نيلها مخصب الثرى ... فيغنى الورى فى الحالتين عن القطر

«*»

لسلطان مصر الناصر بن محمد ... على كل مصر طاعة البر والبحر

تجمعت الامصار فى مصر طاعة ... وهل تجمع الامصار الا على مصر

سلام على إسكندر الوقت إن يفح ... شذا الذكر عنه فالسلام على الخضر

سلام ثغور الخلق تنقش فى الثرى ... بأفواهها ختما على أنفس الذخر

على باب سلطان العباد كأنها ... لنظم ثناياها عقود من الدر

مليك روت أعماله سير التقى ... عن الملك المصرى عن الحسن البصرى

فملك بلا جور وحكم بلا هوى ... وأزر بلا وزر، وعز بلا كبر

قضا عمر فى حلم عثمان جامعا ... لبأس على، فى سماح أبى بكر

* * *

أجل بيوت الملك بيت قلاون ... وأنت أجل البيت باوارث الدهر

فملكك حق واضح الصبح أشرقت سعادته كالظهر يا واحد العصر
مراد البرايا أن تدوم وان تووا وميراثك الباقى إلى ذلك الحشر
بصونك أركان الشريعة شيدت وصينت ثغور كلها باسم الثغر
لك الله إما كسب حظ من الثنا تحوزو إما كسب حظ من الأجر
ليهنك ما تجنيه من جنة غداً بأبطال ما تجنى الجنايات من وزر
ويهنك ما عمرته من معالم سيثنى على عمـــارهن أبو ذر
ويمد حكم حسانها اليوم أو غداً بدار البقا بعد الطويل من العمر
فأيامك الأعياد عائدة لمن رجاك ومن عاداك بالفطر والنحر
وأعداك هذا مس فى النوم رأسه وآخر قبل السيف مات من الذعر
وكم لك فى داني الديار ونازح غيوث عطايا تخلط السهل بالوعر
يضن بأحمال من التبن معشر اذا اتصلات أحمال جودك من تبر

* * *

هنيئا لسلطان البرية سيرة مزهرة الأوراق بالأنجم الزهر
يبيع ولكن بالكلام نفائسا من المال تلقاها غدا جمة الوفر
ويبتاع لكن بالنفيس غواليا من الحمد إلا أنه عاطر النشر
تأملت ماتعطى الملوك من النهى فعوذت فردا بالثلاث من الحجر
أحقا أرانى فى ثرى عتباته نباتا يحيى واكف المزن بالزهر
وأنشد أمداحا تقول لمن أنت مدحتك بالشعرى وغيرك بالشعر

٣ — وقال يرثى ابنه عبد الرحيم وقد مات صغيرا وهو كبير

أبكيك للحسنين الخلق والخلق كما بكى الروض صوب العارض الغدق
تبكيك رقة لفظى فى مهارقها ياغصن فاسمع بكاء الورق فى الورق

وما أوفيك يا عبد الرحيم وإن بكت لك العين بعد الماء بالعلق
ما زال مبيض دمعي داعيا لدمي حتى بكيت ظلال الحسن بالشفق
يا ساكن اللحد مسرور المقام به أرقد هنيئا فاني دائم الأرق
بني لولاك ما استعذبت ورد بكا ولا أنست بتسهيد ولا أرق
كم نائح كالصدى مثلي على ولد يقول واحرقي إن قلت واحرقي
أدنيت للطرف قبرا أنت ساكنه عسى أساعد في شجوي وفي قلقي
بالرغم إن بات بدر الأفق معتليا وبات بدري مدفونا على الطرق
يا ترب كم من قبور قد نثرت بها أعضاء حسن كمثل اللؤلؤ النسق
وكم تركت بها كفا بلا عضد وقد توسدها رأس بلا عنق
بني ليتك لم تعرف ولاءك في حبي فرحت بدمعي شاكي الغرق
وليت نجمك لم يشرق على سحري وليت برقك لم يومض على أفقي
ما كان أقصر أوقاتا بك استرقت فليت عمري، قطوع على السرق
ما كان أهداك في السن الصغير إلى فضل تجمع فيه كل مفترق
فان يغب منك عن جفني عطارده فقد رميت بفكر فيه محترق
مضيت حيث بقايا العمر تضعف لي واطول حزني مما قد مضى وبقي
لا أهملتك عيون السحب هاملة ولا بعينيك ما يلقى الحشا ولقي
فما أظنك ترضى حالة نعمت وأن قلبي بنيران الهموم شقي
قد أخلقت جسدي أيدي الأسى فمتى للأرض ترمي بهذا الملبس الخلق

٤ — وبعث بهذه الأبيات إلى أحد الأجواد الشعراء جوابا عن مقطعة بعث بها إليه ومعها عطاء .

يا سيدي لك نظم في محاسنه لمح من الزهر أو نفح من الزهر

من كل بحر قريض أنت وارده ... تجلو على الناس أنواعا من الدرر
لكنني أشتكي حالا يبيت بها ... فكري على الهم أو جفني على السهر
أخجلتني بقريض كان غايته ... أن أخبر الناس عن فقري وعن حصري
لا ثروة المال في كفي قاضية ... حقا ولا ثروة الأشعار في فكري
فاصرفه عني الى الأكفاء وابق على ... ما بيننا من صفاء الود واقتصر

٥ — وقال شهاب الدين محمد بن يوسف الشيباني التلعفري المتوفى سنة ٦٧٥ يتغزل وكل شعره في الغزل وما يتصل به :

لو كتمثل الذي أجن أجنا ... من غرام لما جنى وتجنى
لكن الوجد مذ عدا قلبه ها ... ن عليه وجد الكئيب المعنى
يا معير الغزال والغصن لحظا ... وقواما إذا رنا وتثنى
ومعير الدر المنظم ثغرا ... وحديثا والبدر نورا وحسنا
علمتني أيام هجرك صبرا ... لم أكن قبلها له أتمنى
فلك الشكر بالفعال الذي كا ... ن منونا وإنما صار منا
صاح شم برق برقة إن تراه ... وحمام الحمى إذا ما تغنى
لزفيري شواظ ذلك إن لا ... ح ونوحي ترجيع ذا حين حنا
كلما ناح ذا ولاح مجدا ... ذاك وهنا شكت ضلوعي وهنا
سلهما والسؤال ليس بمجد ... مستهاما يبكي إذا الليل جنا
أعلى أيمن الكثيب فريق ... أودعونا مذ فارقوا الحزن حزنا
غيبوا في هوادج العيس بدرا ... كالحميا ريقا وخدا وجفنا
لو رآه من قبل قيس وقس ... ما اشتهى أن يحب ليلى ولبنى
عجبي منه والتعجب فيه ... مثل وجدي في حبه ليس يفنى

كيف يسطو على ليثا هصورا　　ثم يرنو إلى ظبيا أغنا

٦ — وقال يذكر الطيف ويتغزل فى صاحبه .

ألم بى طيفه إلمام مختلس　　فأشرقت بسناه ظلمة الغلس

جلا على بعده لى منه بدر دجى　　على قضيب بغير الدل لم يمس

طيف غنيت به عن شيم بارقة　　وعن تلقى صبا مسكية النفس

أراحنى من مواعيد مزخرفة　　أجريت منهن آمالى على يبس

فبت فى نعمة لليل سابغة　　ممتعا باللمي والثغر واللعس

أردد الطرف فى خد نضارته　　وقف على مستق منها ومقتبس

خد متى قلت إن الورد يشبهه　　قال الجمال تأمل ذا وذا وقس

شققت أكمام صون عن شقائقه　　بالرغم من نرجس فى الأعين النعس

فيالها زورة ما كان لى طمع　　فيها لعلمى بخلق الزائر الشرس

بات الغرام بها فى مأتم وأنا　　بمنة عظمت للطيف فى عرس

وافى بمن لم أخل أني أفوز به　　لما على طرفه دوني من الحرس

فلاعدمت الكرى من محسن أبدا لا　　يمان بالأنس لى ممن إليه نسى

٧ — وقال يصف الخمر ولا ينسى الغزل:

نهارى كله قلق وفكر　　وليلى كله أرق وذكر

تقسمنى الهوى كمدا وحزنا　　فأمرهما لختفى مستمر

فقم نخطب عروسا بنت كرم　　لها الأموال والألباب مهر

عجوز قد أسنت وهى بكر　　ومن عجب عجوز وهى بكر

مفرحة يفر الهم منها　　فليس يضمها والهم صدر

إذا برزت وجنح الليل داج　　تبلج من سناها فيه فجر

غنبت بكأسها وبها ولم لا … ومن هذين لى ورق وتبر
يطوف بهـا علينا بدر تم … منير عمره خمس وعشر
يجول على متون الخصر منه … نطاق ماله منـــه مفر
لنا بكئوسه وبمقلتيـه … كما حكم الهوى سكر وسكر
يرد بهـا إليهـا وهى بيض … ويأخذها إلينـا وهى حمر
إذا وافى بهـا ويهز عطفا … فغصن نقاو شمس ضحى وبدر
له مثل الطـلا خدو ريق … ومثل حبابهـا لفظ وثغر
متى مارمت من عطفيه ضما … نهاني عنه من جفنيه كسر
ومن بدع الهوى والحب أني … إليـه من لواحظه أفر
يريني فى التنائي والتدانى … سريعا مايسوء وما يسر
وينهر سائلا من دمع عينى … ويجرى منه فى خدى نهر
كلفت به أغن الانف أحوى … له قد كغصن البان نضر

٨ — وقال هذه الموشحة يمدح بها الأديب الشاعر شهاب الدين أحمد العمادى المتوفى حوالى سنة ٦١٥ جوابا عن موشحة كتب بها إليه

ليس يروى مابقلب من ظما … غير برق لائح من أضم
إن تبدى لك بان الأجرع … وأثيتلات النقـا من لعلع
ياخليلي قف على الدار معى … وتأمل كم بها من مصرع
واحترس واحذر فأحداق الدمى … كم أراقت فى رباها من دم
حظ قلبي فى الغرام الوله … فعذولى فيــه مالى وله
حسبى الليـل فما أطوله … لم يزل آخره أوله

في هوى أهيف معسول اللمى | ريقه كم قد شفى من ألم
سائلي عن أحمد مما حوى | من خلال هي للداء دوا
ماسواه وهو ياصاح سوى | ناشر من كل فن ماانطوى
بحر آداب وفضل قد طما | فاخش من آذيه الملتطم
العمادي الشهاب الثاقب | شكره فرض علينا واجب
فهو إذ نبلوه نعم الصاحب | سهمه في كل فن صائب
جائل في حلبة الفضل كما | جال في يوم الوغى شهم كمي
شاعر أبدع في أشعاره | ومتى أنكرت قولي باره
لو جرى مهيار في مضماره | والخوارزمي في آثاره
قلت عودا وارجعا من أنتما | ذا امرؤ القيس إليه ينتمي

٩ — وله إجابة أخرى شعرية قالها يخاطب صديقا سأله عن حاله بعد فراق غلامه نجم

بأبي أنت ياخليلي وأمي | أنت قوسي إذا رميت وسهمي
أنت والله لي حسام جراز | فيه للنائبات أعظم حسم
كيف أخشى ذلي ولي منك عز | ماترقت إليه همة نجم
نظمت فيك للمعالي عقودا | معجزات جميع نثري ونظمي
سيدي مايطيق عبدك يشكو | مايقاسي من فرط وجد وغم
مذ تولى نجمي علمت بأني | هابط في جميع أمري ونجمي
الليالي عندي ظلام وظلم | بعد ذاك اللمى وذاك الظلم
جملة الأمر أن لي بعده دمعا كجدواك في انسكاب وسجم

١٠ — وقال الشهاب المنصورى المتوفى سنة ٨٨٧ يرثى الشهاب الحجازى

لهف قلبى على أفول الشهاب ... تحفة القوم نزهة الأصحاب
كان فى مطلع البلاغة يسرى ... فتوارى من الثرى بحجاب
فقدت بره أيامى المعالى ... ويتامى جواهر الآداب
هطلت أعين السحاب عليه ... وقليل فيه دموع السحاب
وذوو الجمع أصبحوا حين ولى ... كلهم جامعا بلا محراب
ياشهابا طلوعه فى سما الفضـ ... ـل ولكن أفوله فى التراب
لك فيما ألفت تذكرة ممـ ... ـا انتقى دره أولو الألباب
روضة أينعت بفاكهة من ... حسن لفظ كثيرة وشراب
فسقى تربها الرباب لتهتز ... وتربو على سماع الرباب
ورأى كسره فقابله الله ... تعالى بالجبر يوم الحساب

١١ — وقال وقد قام الأمير يشبك الدوادار بهدم مازحم شوارع القاهرة وأسواقها من أبنية وسقوف حين كثرت شكاوى الناس من ذلك، يحمد له هذا العمل ويشيد بمنافعه

تكشفت عن محيا مصر أستار ... وخف عنها من الأثقال أوزار
واهتزت الأرض منها بهجة ورنت ... ولاح فيها إضاءات وأنوار
كانت كصبح تعالت فوقه ظلم ... شتى فجاء لها بالنور إسفار
فاليوم أعطافها بالبشر مائسة ... وقدها فى حلى السعد خطار
وكانت الطرق قد شابت مفارقها ... والشيب إن شان مافى أخذه عار
لما شكى الناس من مصر مضايقها ... وحار فيها من الحكام أفكار

فما تلقى أجور القاطنـــين بها إلا الأمير الذى بالعرف أمار
فهو الهمام النظام المرتقى درجا للفضل يشبك مولانا الدوادار

١٢ — وقال يصف الهرمين ويحسن تشبيهما على لسان الحائر أمامهما :

إن جزت بالهرمين قل كم فيهما من عبرة للعاقل المتأمل
شبهت كلا منهما بمسافر عرف المحل فبات دون المنزل
أو عاشقين وشى بوصلهما أبو الـ ـهول الرقيب فخلفاه بمعزل
أو حائرين استهديا نجم السما فهداهم بضيائه المتهلل
أو ظامئين استسقيا صوب الحيا فسقاهما عذبا روى المنهل
يفنى الزمان وفى حشاه منهما غيظ الحسود وضجرة المستثقل

١٣ — وقال وقد أصيب آخر عمره بالفالج وآلمته حمية الطبيب دهرا طويلا

آه يادرهمى ويادينـــارى ضعت بين الطبيب والعطار
كنت أنسى فى وحدتى وشفائى فى سقامى وصحتى فى انكسارى
كنت تقضى ماحلا من غداء وعشاء وتشتهى أوطارى
قد حمانى الطبيب عن شهواتى فاحم يارب قلبه بالنار
طال شوقى إلى الفواكه والبطـــيخ والجبن واللبا والخيار
ضاع لبى على مقاساة لب الـ ـقرع والهندبا وبزر الشمار
كلما أجمع اختيارا حطاما فرقته منى يد الاضطرار
ليت شعرى وللزمان خطوب وبلاء يختص بالاحرار
هل لميت قضى عليه طبيب من كفيل أو آخذ بالثار

١٤ — وقال علاء بن مليك الحموى المتوفى سنة ٩١٧ يهنئ ولى الدين بن فرفور بتوليته منصب قاضى القضاة بدمشق عقب أبيه شهاب الدين ويعزيه فيه

بك الدهر قد أبدى التهلل والبشرا ومماجنى قد جاء يبدى لنا العذرا

وإن كانت العلياء غاب شهابها فانك فيها مطلع أنجما زهرا

وإن كان ذاك البحر قد غاض فى الثرى فيمناك قد أبدت لنا أبحرا عشرا

وما مات من فى الدهر أنت وليه ولم يطر يوما من نشرت له ذكرا

فصبرا ولى الدين صبرا لما مضى وشكرا لما أوتيت من بعدها شكرا

وبشراك قد وليت أشرف منصب وبالصبر قد نلت المثوبة والأجرا

وزادت دمشق الشام حسنا وأصبحت لها الشرف الأعلى وفاقت بكم مصرا

وقد حازت الشقرا بميدانها العلا وسادت على الشهبا بجبهتها الغرا

ومالت بها السمر الرشاق على الربا وقد لبست من سندس حللا خضرا

وعن لؤلؤ الأنداء ثغر أقاحها بدا باسما يزهو فأكرم به ثغرا

وجامعها زفت عليه عروسه ومنبره أبدى المسرة والبشرا

وقد أصبحت تلك المساكن جنة فمن ظل فيها لا يجوع ولا يعرى

منازل للاقمار أمست منازلا إذا غاب بدر أطلعت بعده بدرا

ألا يابنى الآمال فاعشوا لناره وإن رمتم وردا فدونكم البحرا

فهذا الذى يفنى النضار مواهبا ولا نصبا حاشاه يخشى ولا فقرا

ومن جاءه يشكو من الدهر عسرة فان مع العسر الذى ناله يسرا

إمام الهدى قاضى القضاة ومن سمت ببهجته الدنيا وأظهرت البشرا

خبير بصير بالأمور أخو ذكا له فطنة يذكى توقدها الجمرا

وقد عبق الأرجاء طيب ثنائه وأحيا شذاه ما انطوى وذكا نشرا
وقد حاز فى العلياء مجدا وسؤددا ونال محلا ساميا وعلا قـــدرا
وما ذاك إلا من أبيه وراثة ولا عجب للبحر إن ولدا الدرا
فقل للذي قد رام يحكي نواله لقد رمت شيئا لن تحيط به خبرا
وماذا عسى أنى أقول ومـدحه إذا ذلت شعرا زين النظم والنثرا
وإن تليت بالحمد آيات شاعر بمدح سواه فهو آيتها الكبرى
فيا واحد الدنيا ومن نور فرقه أزال الدجى عنا وأبدى لنا الفجرا
لنحوك قد أضحى التفاتى لأننى وحقك لا زيدا أروم ولا عمرا
ولولا معانيك البديعة لم أنل قريضا ولا صغت القوافى والشعرا
فخذها عروسا بالمعاني بديعة مكملة الأوصاف غانيـة عذرا
مخدرة عنها أميط قناعهـــا فأسبل عليها من حلى الرضا سترا
وألق نثـــار الدر عند زفافها عليها وزد فى النقد وابذل لها المهرا
فلا زال نجم السعد نحوك ناظرا وطالعك الميمون يسمو على الشعرى
وقصر عن عليـــاك كل مماثل وطول رب العالمين لك العمرا

١٥ — وقال يرثى الخواجه شمس الدين محمد بن عيسى القارى

يا عين جودى لفقد الألف بالسهر واذرى الدموع ولا تبقى ولا تذرى
ويا جفوني إن لم تسفحين دما بكيت من كبد بالحر مستعر
أستودع الله أحبابا رزئت بهم بانوا وكانوا مكان السمع والنظر
كأنما كانت الدنيـــا هم وبها مرءاهم حين كانوا مشرع النظر
تبا لها دار حزن لا تسيغ هنا لشارب وتشوب الصفو بالكدر
ما أضحكت بالهنا يوما أخا طرب الا وأبكته فى أيامه الأخر

قضي وعنده لقد بانت أحبته … وما قضى من لبانات ولا وطر

لله ما كان أبهى حسن طلعته … فقد غنينا بها فى الحسن عن قمر

قد كان غصنا نضيرا يانعا فذوى … آها لذاك الشباب اليانع النضر

ما قات فى الدر إن الترب مسكنه … متى رأيت يتيم الدر فى الحفر

رأى الزمان به الأيام قد حسنت … فاغتاله ورماها منه بالقصر

كأنه لم يكن عين الزمان ولا … فى جبهة الدهر يوما غرة الغرر

كلا ولا جر أذيال الصبا مرحا … ولا تردى ثياب الدل والخفر

ولا به أشرقت يوما منازله … ولا بها فاح ريا نشره العطر

يافرقة أورثتنى عبرة وجوى … رفقا لقد عز يوم البين مصطبرى

نزحت دمعى أسى يوم الفراق وما … أبقيت لاصب من عين ولا أثر

يالهف قلبي وياحزنى ويا أسفى … ويا بكائى ويانوحى ويا سهرى

صبرا لهذا بنى القارى إن لكم … بالصبر أجراً عظيما غير منحصر

فالموت حتم به رب العباد قضى … ولا مفر لمحذور من القدر

سقاك ياقبره منهل رحمته … وجادك الغيث بالآصال والبكر

ما ناحت الورق فى أفنانها شجنا … وما تباكت عيون السحب بالمطر

١٦ — وكتب الى ابن يوسف القارى يشكو ويستعطف ويتودد ويطلب خادما :

بعيشك دع ما قد مضى يابن يوسف … فما فات لن يؤسى عليه ويؤسفا

وعد بصلات من نداك على الذى … من البعد والأملاق أمسى على شفا

وانى إلى لقياك زدت تشوقا … وانى الى جدواك زدت تشوفا

وما طال ذاك البعد الا لشقوتى … وحاشاك من هذا التباعد والجفا

وها قد وهى حبلى وعز تجلدى ... ومنى عفا صبرى ودهرى ما عفا
وأمسيت لاخلا أراه موافيا ... ولا سيدا ألقاه فى المدح منصفا
ويكفيك من حالي بأني امرؤ أخو ... كفاف وأحلى العيش مابعضه كفى
وها قصة الشكوى إليك رفعتها ... وبعض الذى ألقى أبنت وماخفى
لعل عسى لى أن تجود بخادم ... يعين على البلوى المعنى المعنفا
فان سمحت يوما به النفس فالمنى ... وإلا فاني واثق منك بالوفا
لعلمى أن الجود فيك سجية ... ومازال طبعا فيكم لا تكلفا
وأنك لى كنز وما ثم مانع ... وتسعى على نفعى ولن تتوقفا
ومازلت لى فى سالف الدهر مسعدا ... وعونا على صرف الزمان ومسعفا
وحاشاك أن تصغى لقول مفند ... وعذل عذول لام جهلا وعنفا
ينمق قول الزور فى تعمدا ... ومن حسد يلقى الحديث المزخرفا
فلا زلت برا بالعفاة ومحسنا ... تجود عليهم منة وتعطفا
ولا زال مدحي فيك مسكا ختامه ... تضمخ رياه به من تعرفا
ودمت قرير العين للشمل جامعا ... وأيامكم أوقاتها كلها صفا
مدى الدهر ماهب النسيم بحاجر ... وغنت على بان النقا الورق هتفا

١٧ وقال يتبرم بندمانه ويذم إليه أهل السوء

أذم إلى الزمان أهيل سوء ... يرون الغى من سبل الرشاد
لئام يسلقونك حين تعشو ... لنارهم بألسنة حداد
تراهم من أشد الناس حرصا ... على الشىء الملفف فى البجاد
فيدخرونه قوتا وزادا ... إلى يوم القيامة والتنادى
يبيت نزيلهم غرثان يطوى ... ومضطجعا على شوك القتاد

يرون الجود منقصـــة وذلا ... وأن البخـــل من شيم الجياد
فأكرمهم وأندام بغـــاث ... جماد فى جمـــاد فى جماد

١٨ — وقال وهو آخر ما نختار بمدح الملك العادل طومان باى

تنفست الأيام وابتسم الدهر ... ولاحت على الدنيا الطلاقة والبشر
ونحن بحمد الله فى ذروة العلا ... لنا السعد والاقبال والعز والنصر
وأعداؤنا أيدى سبا قد تفرقوا ... وحاق بهم من بأسنا الذل والاسر
وأسباب سبل الامن منهم تقطعت ... وما شعروا أنا لنا البر والبحر
وسلطاننا طومان باى أجل من ... سما فى الورى فخرا وهذا هو الفخر
وطالعه وافى بأســـعد طالع ... وفى فلك الاقبال قابله البدر
له التاج والقصر الذى قد أشاده ... حوى شرفا ياحبذا المد والقصر
هو الملك السامى علا عن مضارع ... هو الصارم الماضى له النهى والامر
هو العادل السلطان والملك الذى ... به طابت الايام واعتدل الدهر
أبو النصر من بالحمد قد سار ذكره ... وقد عز أن يأتى بمثل له العصر
فلا تنكروا جهلا من الوجه ما حوى ... فهذا الذى لله فى مجده سر
فيا من تضاهيه إليك فقدره ... تسامى على الشعرى ويكفيك ذا القدر
جميل السجايا والمحامد ماجد ... بنا قد غدا برا على أنه البحر
كريم إذا أعطى عظيم إذا سطا ... أخو الجود ذو بأس به النفع والضر
عن البيض لا تلهيه بيض كواعب ... ولا عن طوال السمر تشغله السمر
به عاد نثر الشمل منتظما وقد ... تطابق فى أوصافه النظم والنثر
ومن عجب فى الارض سبعة أبحر ... ومن جود كفيه لنا أبحر عشر
يقلدنى درا مدائحه التى ... به لى قوافيها زهت وحلا الشعر

فيا ملك العليا وبدر سعودها ويامن به جبر لمن ناله كسر
حللت دمشق الشام فانضم شملها وأضحت إلى لقياك ناظرة مصر
يهنيك نصر الله والفتح بعده فشمس الضحى ضاءت وقد طلع الفجر
وعما قليل منهم تبلغ المنى وتظفر بالأعدا وينشرح الصدر
فخذها قصيدا بالهنا طاب نشرها وفاح لنا بالطيب من عرفها النشر
لنحوك قد وافت من الفقر تشتكى أغثها فلا زيد يغيث ولا عمرو
عسى نظرة منها القبول وينجلى سحاب الغنى عنها وينهزم الفقر
فلا برحت رايات مجدك والعلا بها السعد مقرون ويقدمها النصر
ولا زلت تولينا الهبات ولم يزل لك المدح يارب الندى ولك الشكر
ودمت مديد العمر بالبسط كاملا زمانا طويلا ليس يقضى له حصر
سريع الوفا يا بحر ما أينعت ربا وجاد لها سكبا بمرسله القطر

٢ — حياته

لقد أمكن الشعر أن يشق لنفسه طريقا فى دولة المماليك بعصريها على الرغم من نضوب معين التشجيع، لجهل السلاطين والحكام فى جملتهم بالأدب وفقدانهم حاسة التذوق له ؛ فظهرت جمهرة كبيرة من الشعراء فى مصر والشام قرضت من الشعر الكثير وإن بقيت مع هذه الكثرة محصورة الأغراض محدودة الفنون بحكم طبيعة العصر وبحكم ظروفه كما سترى بعد، وكما يدل عليه ما خلفوا من دواوين. وهذا ثبت عن أعلام هؤلاء الشعراء بمصر والشام فى كلا العصرين مع الاشارة الى ما لهم من دواوين وآثار : —

١ — الكمال بن العديم المتوفى سنة ٦٦٠ وله قصيدة فى مدح السيدة عائشة ببطرسبرغ

٢ — شهاب الدين العمادى المتوفى حوالى سنة ٦٧٠ وليس له ديوان معروف

٣ — شهاب الدين التلعفرى محمد بن يوسف الشيبانى المتوفى سنة ٦٧٠ وله ديوان طبع بيروت

٤ — الشاب الظريف محمد بن على التلمسانى المتوفى قبل أبيه المذكور بعده سنة ٦٨٨ وله ديوان مطبوع بمصر

٥ — عفيف الدين سليمان بن على التلمسانى المتوفى بعد ابنه المذكور قبله سنة ٦٩٠ وله ديوان على حروف الهجاء ومنه نسخ برلين ولندن والاسكوريال

٦ — البوصيرى محمد بن سعيد المتوفى سنة ٦٩٥ صاحب البردة والهمزية المشهورتين فى مدح رسول الله ﷺ ويعرف أيضا بالدلاصيرى على النسبة المركبة من دلاص بلدة أمه وبوصير بلدة أبيه

٧ — سراج الدين عمر بن محمد حسن الوراق المتوفى سنة ٦٩٥ وله ديوان مفقود يقال إنه كان ثلاثين مجلدا ولكن اختار منه قبل فقده صلاح الدين الصفدى مجموعة سماها « لمع السراج » ومنها نسخة ببرلين

٨ — شهاب الدين أحمد بن عبد الملك العزازى المتوفى سنة ٧١٠ وله ديوان فى خمسة أبواب بدار الكتب

٩ — شمس الدين بن دانيال الموصلى المتوفى سنة ٧١٠ الشاعر المجونى كما يفهم من كتابه « طيف الخيال » وليس له ديوان معروف

١٠ — برهان الدين الجعبرى المتوفى سنة ٧٣٢ وله ديوان مطبوع بمصر .

١١ — ابن سيد الناس المتوفى سنة ٧٣٤ وله قصيدة فى مدح النبى ﷺ باسم « بشرى اللبيب فى ذكرى الحبيب » مطبوعة بمصر

١٢ — شمس الدين الخياط المعروف بالضفدع المتوفى سنة ٧٥١ وديوانه بالاسكوريال .

١٣ — جمال الدين أبو بكر محمد بن نباتة المصرى المتوفى سنة ٨٦٨ وديوانه ضخم وطبع مرارا بمصر وله قصيدة غزلية فى برلين باسم « سوق الرقيق » .

١٤ — شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى حجلة المتوفى سنة ٧٧٦ وليس له ديوان معروف

١٥ — شمس الدين أبو عبد الله محمد الهوارى المتوفى سنة ٧٨٠ وله ديوان باسم « العين فى مدح سيد الكونين » ببرلين

١٦ — برهان الدين أبو اسحق إبراهيم القيراطى المتوفى سنة ٧٨١ وله قصائد متفرقة ببرلين وبطرسبرج .

١٧ — الوزير فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن مكانس المتوفى سنة ٧٩٤ وله ديوان كبير مفقود ولكن عبد الله الأدكاوى اختصره قبل فقده فى ديوان سماه « بهجة النفوس الأوانس بمختصر ديوان ابن مكانس » ومنه نسخة بغوطا . ولابن مكانس أيضا أرجوزتان بليدن وقصيدة ببرلين وأخرى بالمتحف البريطانى .

١٨ ـ الشهاب أحمد بن العطار الدنيسرى المتوفى سنة ٧٩٤ وصاحب الموشحات النبوية بغوطا .

١٩ ـ جلال الدين بن خطيب داريا المتوفى سنة ٨١٠ وله قصيدة ببرلين .

٢٠ ـ أبو المحاسن تقى الدين أبو بكر بن على بن حجة الحموى، المتوفى سنة ٨٣٧ صاحب البديعية المشهورة وشرحها المعروف بخزانة الأدب ، وهى أشهر البدائع فى مدح رسول الله ﷺ وقد طبعت بشرحها فى مصر مرارا ، وله غيرها « الثمرات الشهية فى الفواكه الحلبية » وهى مجموعة أشعاره بدار الكتب ؛ « مجرى السوابق » وهى مجموعة قصائد فى الخيل بغوطا ، « تغريد الصادح » وهى قصائد أخرى ببرلين

٢١ — عز الدين بن أبى الفرات القاهرى المتوفى سنة ٨٥١ وله ديوان ببرلين .

٢٢ — تاج الدين بن أبى الوفا المقدسى المتوفى سنة ٨٥٧ وله ديوان أبجدى معروف .

٢٣ ـ ابن عيسى المقدسى المتوفى سنة ٨٧٣ وليس له ديوان معروف .

٢٤ ـ شهاب الدين أبو الطيب أحمد بن محمد الحجازى المتوفى سنة ٨٧٥ وله ديوان باسم « اللمع الشهابية من البروج الحجازية » بالاسكوريال .

٢٥ ـ نور الدين أبو الحسن بن سودون المتوفى سنة ٨٧٨ وليس له ديوان معروف .

٢٦ ـ شهاب الدين أحمد المنصورى المعروف بالهائم المتوفى

سنة ٨٨٦ وله ديوان هجائى بفينا وباريس والاسكوريال .

٢٧ – ابن الجيعان القبطى المتوفى سنة ٩٠٠ وليس له ديوان معروف

٢٨ — تاج الدين عبد الوهاب بن أحمد بن عربشاه المتوفى سنة ٩٠١ وله بديعية باسم « شفاء الكليم بمدح النبى الكريم » فى غوطا ، وقصيدة من ألف ومائتى بيت باسم « مرشد الناسك لأداء المناسك » بغوطا أيضا وكذا قصائد أخرى فى برلين .

٢٩ – شهاب الدين أحمد العزازى المتوفى سنة ٩١٢ وله ديوان باكسفورد .

٣٠ — علاء الدين بن محمد بن مليك الحموى، المتوفى سنة ٩١٧ وله ديوان طبع ببيروت .

٣١ – محمد رشيد الحلبى المتوفى سنة ٩٢٠ وليس له ديوان معروف

٣٢ – السلطان قانصوه الغورى المتوفى سنة ٩٢٢ وله ديوان فى هفنيا .

فهؤلاء اثنان وثلاثون شاعرا ، ومن سنى وفياتهم المرتبة لتعدادهم ترى أن نحو نصفهم من دولة المماليك الأتراك والنصف الآخر من دولة المماليك الشراكسة ، على أن المتوسطين فيهم ؛ قد عاصروا الدولتين ، وعلى كثرة من رأيت من الملقبين منهم بشهاب الدين تقول، وقد كان هناك من الشعراء شهب ذكرهم ابن إياس استدلالا على كثرة الشعراء فى هذا العصر كما ذكرنا، حيث يقول « وكان بالقاهرة سبعة من الشعراء اجتمعوا فى عصر واحد وكل واحد يدعى بشهاب فكان يقال السبعة الشهب ، وهم ، الشهاب بن حجر ، والشهاب بن الشاب التائب ،

والشهاب بن أبى السعود ، والشهـاب بن مبارك شاه الدمشقى ، والشهاب بن صالح ، والشهاب الحجازى ، والشهاب المنصورى ، فلما مات الستة رثاهم الشهاب المنصورى بهذه الأبيات :

خلت سماء المعانى من سنا الشهب — فالآن أظلم أفق الشعر والأدب

تقطب العيش وجها بعد رحلة من — تجانبوا بالمعانى مركز القطب

وعطلت خرد الأيام من درر — كانت تحلى بها منهم ومن ذهب

لو تعلم الأرض ماذا ضمنت بطرت — بهم كما يبطر الانسان بالنسب

ولو درى المسك أن الارض قبرهم — لود نشقة عرف من شذا الترب

وهذا اختصار من القصيدة التى لهم رحمة الله عليهم أجمعين »

فهؤلاء شهب سبعة لم يعاصرهم من الشهب الثمانية الذين ذكرنا إلا الشهاب الحجازى والشهاب المنصورى .

هذا - وقد خلف لنا بعض هؤلاء الشعراء غير دواوينهم مجاميع شعرية مع المجاميع الاخرى التى خلفها لنا فى هذا الباب بعض الادباء، وإليك أشهر الشخصيات ذوات الأثر فى ذلك من هؤلاء وهؤلاء بترتيب سنى الوفاة :-

١ - صلاح الدين الصفدى المتوفى سنة ٧٦٤ وله كتاب «ديوان الفصحاء وترجمان البلغاء» المار فى مجموعات الانشاء لما به من نثر ، وكتاب « تشنيف السمع فى انسكاب الدمع » وهو مجموع ماقال الشعراء فى الدمع ، بدار الكتب ، وكتاب « الحسن الصريح فى مائة مليح » وهو مجموع ماقيل من الاشعار فى الغلمان ، بالمتحف البريطانى وأيا صوفيا .

٢ — ابن حبيب الحلبي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٩ وله كتاب « نسيم الصبا » وهو منتخبات شعرية على حسب الموضوعات وطبع بمصر

٣ — برهان الدين القيراطي المتوفى سنة ٧٨١ وله كتاب « مطلع النيرين » المار ذكره فى مجموعات الانشاء لما فيه من رسائل وقد طبع بمصر

٤ — شمس الدين النواجي المتوفى سنة ٨٥٩ وله عدة آثار فى هذا الباب منها « المقدمة فى صناعة النظم والنثر » بباريس وقد ذكرت فى المنشئات لما بها من نثر ، « تحفة الأديب » فى برلين بخطه وهى مجموعة أشعار جرت مجرت الأمثال ، « تأهيل الأديب » بباريس وهى مجموعة أشعار غزلية ، ثم مجموعة قصائد فى مدح النبي ﷺ ومنها واحدة على حدة ببرلين ، « عقود اللآل فى موشحات الأزجال » بالاسكوريال .

٥ — ابن عيمى المقدسى المتوفى سنة ٨٧٠ وله كتاب « الجوهر المكنون فى السبعة فنون » يعنى فنون الشعر وهو بالاسكوريال

٦ — الشهاب الحجازى المتوفى سنة ٨٧٥ وله كتاب « روض الآداب » فى القصائد المطولات والمقاطيع والموشحات والأزجال وفيه بعض النثر والحكايات ، بدار الكتب

٧ — ابن الجيعان المتوفى سنة ٩٠٠ وله كتاب « مسايل الدموع على ماتفرق من الجموع » وهو مجموعة أشعار فى الفراق بالمتحف البريطانى

٨ — محمد رشيد الحلبي المتوفى سنة ٩٢٠ وله كتاب « أشعار المعاصرين » ببرلين

٩ — السلطان قانصوه الغورى المتوفى سنة ٩٢٢ وله كتاب « المنقح الظريف على الموشح الشريف » وتوجد منه نسخة بغوطا .

الى غير هذه من المجموعات الشعرية الخاصة التى خلفها لنا أدباء هذا العصر ، والى غيرها من الكتب التى ذكرناها آنفا خاصة بالأدب وبالتاريخ ، فانها تحوى كثيرا من النصوص الأدبية نثرية ونظمية ، إما بطريق الاستطراد وإما عن طريق القصد حيث يبنى عليها الأدباء ماينبنون من تعليق ، وبخاصة فى كتب الموسوعات التى سلخ بعضها أبوابا خاصة لهذه النصوص كما يعرف ذلك العارف بها والمطلع على فهارسها .

وبعد فان علينا بعد ذلك أن نترسم خطانا السابقة فى العصرين الفاطمى والأيوبى حيث الكلام على حياة الشعر هناك من سوق القول مقسما الى هذه النواحى الثلاث ، وهى : ناحية الأغراض والفنون ، وناحية المعانى والأخيلة ، ثم ناحية الألفاظ والأساليب ، حتى يمكن بهذا التقسيم تحديد القول وإحكام الموازنة ، مع الاهتداء فيما سنقول بما أسلفنا من النماذج التى تخيرنا أن تكون لأربعة شعراء ، اثنين من مصر ، واثنين من الشام ، وأن يكون أحد الاثنين فى كلتا الحالتين من عصر المماليك البحرية والآخر من عصر المماليك الشراكسة ، الى ماسنسوق من نماذج أخرى للاستشهاد إن شاء الله .

أولا — ناحية الاغراض والفنون

١ — شعر العصبية

لم يكن لهذا الغرض من الشعر سلطان بهذا العصر ،
فأما القائم منه على العصبية الجنسية أو السياسية بين العرب والمماليك فلأن العرب لم يكن لهم تدخل فى سياسة الملك وكل ما كان يحدث منهم إذ ذاك كان لا يتجاوز الاغارة للسلب والنهب، فاذا ما كان تأديبهم على أيدى المماليك لم يتحرك معظم الشعراء للقول فى هذا الموضوع ومن تحرك منتصرا للترك — وهو ما كان — لم يتجاوز قوله البيت أو البيتين، كهذا الذى يقوله ابن إياس وهو من أنسال المماليك حين عاث عرب عزالة بقرية المعصرة فى ولاية الظاهر بن سعيد الأشرفى يحرض عليهم.

ألا قولوا لأعراب تجروا ... على حرب ولم يخشوا عقيبه
سهام مليكنا أضحت نفوذا ... ونرجو أن تكون لكم مصيبة

فكان أن نكل بهم السلطان وعلق أسراهم بعد قتلهم على أبواب القاهرة وسجل ذلك الزيتونى فى زجل طويل أسوة بما فعله قبل ذلك الظاهر برقوق مع عرب البحيرة حين عاثوا بدمنهور وسجل ذلك الغبارى فى زجل باسق .

وأما القائم منه على العصبية السياسية بين بعض المماليك وبعض فقد كان جديرا أن يكثر فيه الشعر ولكن جرت سنة الشعراء ألا يتدخلوا بين هؤلاء إلا فى النزر اليسير وبالأبيات التى لم تتجاوز المقطعة ومن هذا ما قاله شهاب الدين أحمد بن عبد الدائم حين اغتصب المظفر بيبرس جاشنكير الملك من البيت القلاوونى أيام الناصر فغضب

للناصر مماليك أبيه لماله عليهم من حق التربية والعتق وأرجعوه بعد الفتك بالمظفر ومعاونيه وأخصهم ابن عدلان وابن المرحل قال

ولى المظفر لما فاته الظفر وناصر الحق وافى وهو منتصر
وقد طوى الله من بين الورى فتنا كادت على عصبة الاسلام تنتصر
فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه أثواب عارية فى طولها قصر
لما تولى تولى الخير عن أمم لم يحمدوا أمره فيها ولا شكروا
وكيف تمشى به الاحوال فى زمن لا النيل أوفى ولا وافاهم مطر
ومن يقوم ابن عدلان بنصرته وابن المرحل قل لى كيف ينتصر

وكذلك كان شعر العصبية الدينية شبه معدوم على العكس مما كان أيام الفاطميين والأيوبيين والذى ورد منه جاء هزيلا فى تافه الموضوعات ، كما حدث من بعض الشعراء لمن قال من العلماء بفسق ابن الفارض وأخصهم برهان الدين البقاعى ومحيى الدين بن الشحنة الحلبى ، وفى الأول يقول الشهاب المنصورى وفيه قلب

إن البقاعى بما قد قاله مطالب
لا تحسبوه سالما فقلبه يعاقب

وفى الثانى يقول أبو النجا القمى وفيه اكتفاء عن حرفين هما الفاء والراء من كلمة كافر .

أقعدت يا حلبى بالصفع فى قفاكا
لما ادعيت فسقا للفارضى ياكا

ومما يتصل بهذه الناحية من شعر العصبية الدينية ما قاله شمس الدين الطيبى حين أمر الناصر أهل الذمة أن يغيروا عمائمهم من البياض

إلى الزرقة للنصارى والصفرة لليهود والحمرة للسامريين تمييزا لهم من المسلمين .

تعجبوا للنصارى واليهود معا ... والسامريين لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالأصباغ منسهلا ... نسر السماء فأضحى فوقهم ذرقا

وكذلك قول الشيخ بدر الدين بن حبيب حين رسم الأشرف زين الدين للسادة الأشراف أن يجعلوا فى عمائمهم شارات خضراء ليمتازوا عن غيرهم تعظيما لقدرهم

عمائم الأشراف قد تميزت ... بخضرة رقت وراقت منظرا
وهذه إشارة أن لهم ... فى جنة الخلد لباسا أخضرا

٢ — الفخر

لقد جاء الفخر هذا العصر على الضد مما كان عليه فى العصر الماضى ، لأن أسباب القوة التى وجدها هناك فى مقدرة الخلفاء الفاطميين والسلاطين الأيوبيين على قول الشعر وترديد آيات مجدهم بلسان الفخر كما عرفت ، لم يكن لها هنا من وجود ، وذلك لتمكن العجمة من المماليك فضلا عن تجردهم دون أولئك من الأحساب والانساب ، على أن ذاك العصر رزق من فطاحل الشعراء فى غير بيوت الملك من له فى المكانة العظامية أو الكفاية العصامية أو فيهما جميعاً مدد أى مدد للتعاظم والتعالى والتطاول والتسامى فى حين فقد شعراء هذا العصر ذلك المدد فلم يكن لهم منه كثير ولا قليل وكل ماتراه من الفخر للقلة القليلة منهم لايتجاوز فى ناحية العصامية نخره ببديع شعره وصناعة نظمه كما يقول

ابن نباتة من شعراء المماليك البحرية لعلاء الدين بن فضل الله فى آخر مدحة .

فريد العلا هل أنت مصغ لناظم ... فريد الثنا كالتبر ليس يعاب
وأنت الذى أنطقتنى ببدائع ... بغيظ أناس قد ظفرت وخابوا
فما النظم إلا ما أحرر فاتن ... وما البيت إلا ما سكنت يباب
إليك انتهى قول لمن قال ملجم ... وخف له فى الخافقين ركاب
فدونك منه كل سيارة لها ... مقر على أفق السها وجناب
علا فوق عرنين الغزالة كعبها ... وزاحمت الستين وهى كعاب

وكما يقول ابن مليك الحموى من شعراء المماليك الشراكسة لكاتب السر ابن أجا فى آخر مدحة أيضا .

اليك فخذها من لسانى حديقة ... موشحة الألفاظ مطلعة زهرا
عقيلة فكر إن أماطت قناعها ... غنيت بها عن كل غانية عذرا
بسمع النباتي لو تكرر لفظها ... لأنساه يوما سكب مرسلها القطرا
أتتك عروسا تجتلى من خبائها ... فألق عليها من حلى الرضا سترا
وقابل بنثر الدر نظم عقودها ... عسى منك تلقى فى المقابلة الجبرا

٣ — المدح والتهانى

يصح أن نقول فى غير تحرج ، إن الفن الشعرى الذى ساد هذا العصر وكان الميدان الذى تبارى فيه جمهور الشعراء لم يكن إلا فن المدح وما يتصل به من التهنئات ، فقد شغل فى كل ديوان تقريبا معظم صفحاته وأغلب قصائده ، فديوان ابن نباتة الذى قلنا إنه من شعراء المماليك الأتراك وهو فى ستمائة صفحة قد شغل المدح ثلثيه كما استأثر

من قصائده الأربعمائة بأكثر من مائتين وخمسين . وديوان ابن مليك الذى قلنا إنه من شعراء المماليك الشراكسة جاوز فيه المدح هذه النسبة، صفحات وقصائد؛ وكذينك جاءت معظم الدواوين ، وانما كان هذا لأن الشعر كان أداة الكسب للشعراء؛ وبه كان الوصول إلى مطالب الحياة؛ ولقد كان من دأبهم فيه تكثيرا لذاك الكسب وتمكينا لهذا الوصول أن يحيدوا عن السلاطين المماليك إلا فى النادر القليل كما سبق بالنماذج إلى ذوى الفهم له والمعرفة بقدره من أرباب المناصب الرفيعة وذوى الجاه واليسار؛ فابن نباتة أكثر منه فى آل فضل الله الكتاب وآل السبكى القضاة وفى المؤيد وآله بقية الأيوبيين بحماة ، وابن مليك قصد به أكثر ماقصد آل فرفور القضاة وابن أجا وآله الكتاب وبنى القارىّ من أعيان التجار ، وقد سبقت لكليهما مختارات بالنماذج فى أغلب هذه النواحى وإليك نماذج لهما فى باقيها .

قال ابن نباتة يمدح تقى الدين السبكى بعد ذكر سلفه .

٠ضوا وضاءت بنوهم بعدهم شهبا	تمحو بنور سناها كل ظلماء
فمن هلال ومن نجم ومن قمر	فى أفق عز وتمجيد وعلياء
حتى تجلى تقى الدين صبح هدى	يملى وإملاؤه من فكره الرائى
أغر يسقى بيمناه وطلعتــــه	صوب الحيا عام سراء وضراء
يلقاك بالبشر تلو البشر مبتسما	كالبرق تلو هتون المزن وطفاء
ذو العلم كالعلم المنشور تتبعه	بنـــو قرى تترجاه وإقراء
فالشافعى لو استجلى صحائفه	فدى بأمين نحـواها وآباء

وقال يهنىء علاء الدين بن فضل الله بالعود من الحج

بشراك ان السرى والعود مبرور ... وان سعيك عند الله مشكور
وان حجك فى عاف بمصر دعا ... كمثل حجاك بالبطحاء موفور
وان كل حمى يممت دار هنا ... وخادم الوقت مختال ومسرور
فانك الغيث إن تحكم على أفق ... فالجدب والخصب منهى ومأمور

وقال ابن مليك يمدح محب الدين بن أجا كاتب السر متخلصا من غزل طويل

عذب اللمى يفتر عن درء به ... جادت لنا أيدى محب الدين
مولى اذا سحت سحائب جوده ... حدث وقل ماشئت عن سيحون
هو فاضل العصر الذى فى مصره ... إنشاء قهوة لفظه ينشيني
أفديه محمود السجايا ، وصفه ... كالحسن لم يحتج إلى تحسين
قطب المعالى والمعانى لفظه ... يغنى عن الافصاح والتبيين
والى سما العلياء طفلا قد سما ... وسما على الاقران فى العشرين

هذا وانما قلنا فى صدد القول عن المدح فى هذا العصر « وكان الميدان الذى تبارى فيه جمهور شعرائه » ولم نقل الذى تبارى فيه شعراؤه لأن بعضهم تنقل بشعره فى كثير من الفنون دون أن تكون الغلبة عليه للمدح كما رأيت فى اختيارنا بالنماذج للشهاب المنصورى ، بل إن منهم من قصر شعره على فن غير المدح كما قلنا عن التلعفرى فى النماذج، إن كل شعره فى الغزل ومايتصل به ، وحقا قلنا لأنا لم نر فى ديوانه غير ذلك الفن إلا الموشحة والاجابة اللتين ذكرناهما له هناك فى المدح .

وبعد فمن ألوان المدائح التى انتشرت فى هذا العصر المدائح النبوية

ويكفى أن تعلم أن من شعرائه فى ذلك البوصيرى صاحب البردة والهمزية ذاتي الشهرة المعدومة النظير فى هذا الباب ومحل المعارضة نستغفر الله بل المحاكاة من كل مداح الرسول بعد، وهذان لونان من ذلك لابن نباتة وابن مليك .

قال ابن نباتة من همزية

بعين الله صب قد جفاه ... كراه والأحبة والهناء
لفكرته سرى فى كل واد ... كأن حنينه فيه حداء
ذكت أشواقه فمتى تراها ... قباب قبا كما لمعت ذكاء
بحيث الأفق يشرق مطلعاه ... وحيث سنا النبوة والسناء
وباب محمد المرجو يرجى ... لقاصده نجاح أو نجاء
لنا سند من الرجوى لديه ... غداة غد يمنعنه الوفاء
وترتقب العصاة بذى شفيع ... مجاب قبل ما وقع النداء .

وقال ابن مليك من ميمية بعد غزل طويل

وأقسم لولا حبكم بين أضلعى ... لما شاق قلبي المنحنى والمخيم
وماعذبات البان والرند والنقا ... ومسفح اللوى لولا الجناب المعظم
نبى له جاه عظيم ورفعة ... فقل ماتشافى وصفه فهو أعظم
هو الفاتح المبعوث والخاتم الذى ... به كنز أسرار النبوة يختم
هو البحر الا أن مورده حلا ... هو الجوهر الفرد الذى لا يقسم
وإن يك عن موسى وعيسى زمانه ... تأخر فهو السابق المتقدم
فموسى وعيسى بشرا بقدومه ... وكان ولا موسى وعيسى ومريم

٤ - الرثاء والتعازى

صحب الرثاء المدح فيما ذكرناه من ميادين قياما من المادح بواجب الوفاء لممدوحيه، وكذلك كانت التعزية إزاء التهنئة وكثيرا ما كانتا تجتمعان فى القصيدة الواحدة حين الولايات، وقد رأيت من ذلك ألوانا فيما قدمنا لابن نباتة مع المؤيد وابنه الأفضل ولابن مليك فى آل فرفور، وإليك لابن نباتة أبياتا من مراثيه الخالصة لشرف الدين ابن فضل الله قال

سقاك وحياك الحيا أيها القبر — وفاضت على مغناك أدمعه الغزر
وزارت ثراك الطهر سحب وفية — لذى المحل حتى يجمع الطهر والطهر
تجود بسقياها على جدث العلا — وإن كان فى أرجائه البحر والبر
إمام تقى للملك فى رأيه هدى — وصدر علا لله فى أمره سرر
فقدناه مشكور المساعى منزها — عن الوزر إن أودى بذى تربة وزر
فلهفى على آرائه البيض أحوجت — إليها الرماح السمر والعذب الصفر
ولهفى على أقلامه السود أوحشت — إليها السيوف الحمر والنعم الخضر
سلام على الإنشاء بعد فراقه — سلام امرىء أمسى لأدمعه نثر

ولقد كان للشعراء فى هذا الفن مجال لم يكن لهم مثله فى المديح، هو رثاؤهم لأبنائهم وذوى قرباهم؛ وقد رأيت منه لابن نباتة رثاءه لابنه عبد الرحيم، وهذا ابن مليك يقول فى رثاء ابن له أيضا.

ياطائرا بات يبكى إلفه شجنا — قد هيج اليوم عندى نوحك الشجنا
تبكى على غصن أبكى عليه لقد — أشبهتنى فكلانا يندب الغصنا

لـكن مابك مابى ياحمام فخذ في النوح أولا تعلم منى الحزنا
هل من لطرفي يعيد النوم لى سنة فان لى مقـلة لاتعرف الوسنا
مالى وما لزمان فى تكدره أصفو له وهو يسعى فى تفرقنا

٥ — الهجو والعتب

إن موت شعر العصبية من جنسية وسياسية ومذهبية فى هذا العصر كما علمت ، أمات شعر الفخر كما أسلفنا وقد أمات أيضاء شعر الهجو إلى حد ما فلم يك يرى إلا ضئيلا هزيلا ليس له سوق ولا ميدان ، وأقصى ما كان يقوله شاعر فى شاعر لا يعدو هذا الذى يقوله ابن نباتة .

وانى إلى بمدحـــة قد أخبرت عن كل بيت جيد من أين جا
فسكت عنه فجاءنى بهجائه لأجيبه هيهات أخلفه الدجى
من كان فى حال المدائح ساقطا عندى فكيف يكون فى حال الهجا

ولقد كان الهجو يساق أكثر ما يساق عاما لا يقصد به الشاعر معينا كالذى رأيته بالنماذج لابن مليك يذم فيه أهل السوء ، أو يقصد ولكن يختفى وراءه ويتوارى كهذه الأبيات التى دسها قائلها فى ورقة إلى مجلس السلطان المؤيد شيخ يذم فيها جلال الدين البلقينى وشمس الدين الهروى حين خلف الثاني الأول فى قضاء الشافعية وهى :

يأيها الملك المؤيد دعوة من مخلص فى حبه لك ينصح
أنظر لحال الشافعية نظرة فالقاضيان كلاهما لا يصلح
هذا أقاربه عقارب وابنه وأخ وصهر فعلهم مستقبح
غطوا محاسنه بقبح صنيعهم ومتى دعاهم للهدى لا يفلحوا

وأخو هراة بسيرة الملك اقتدى ... وله سهام فى الجوانح تجرح
لا درسه يقرا ولا أحكامه ... تدرى ولا حين الخطابة يفصح
فارح هموم المسلمين بثالث ... فعسى فساد منهم يستصلح

والسيوطى يرجح أنها لابن حجر كما قال العينى ؛ وكذلك فعل من أراد أن يهجو ابن زهـــر الطبيب الذى تغالى فى الأجر أيام غلاء فقال .

قل للغلا أنت وابن زهر ... بلغتما الحـــد والنهايه
ترفقا بالورى قليـــلا ... فى واحـد منكما كفايه

أما العتب فكان سائداً فى هذا العصر ولكنه كان يلبس ثوب المدح والاستعطاف حينا كالذى سلف بالنماذج من ابن مليك الى ابن يوسف القارى ، أو الشكوى والتصبر أحيانا كما يقول ابن نباتة

لئن ضاع مثلى عند مثلك إننى ... لعمر المعالى عند غيرك أضيع
متى تنجع الشكوى إذا أنا لم أجد ... لديك اعتناء غير أنك تسمع
وما كان صعبا لو مننت بلفظة ... تردبها عنى الخطوب وتردع
وقلت امرؤ للشكر والأجر قابل ... وللبر فيه والصنيعة موضع
ومغترب عن قومـــه ودياره ... أساعده والله يعطى ويمنـــع
سأصبر حتى تنتهى مدة الجفا ... وما الصبر الابعض ما أتجرع
عسى ظلمة الحى التى قد تعرضت ... سحابة صيف عن قليل تقشع
على أننى راض بما أنا صـــانع ... وصول الولا لو أننى أتقطع
حبست لضيق الرزق حبس حمامة ... فهأنا فيكم بالمدائح أســـجع
وأصبح فكرى كالعبير سواده ... إذا نفحته جـــذوة يتضوع

٦ — المجون والتندر

استمر هذا الفن عصر المماليك على النهوض الذى كان له فى العصر قبله ، بل زاد نهوضا وذيوعا ؛ فقد كان مدده فى العصرين استعداد المزاج المصرى للمجانة والفكاهة وسرعة الخاطر فى إيراد النكتة والتندر بها ، وجاء له مع هذا فى العصر الثانى كثرة الفراغ والبعد بسواد المصريين عن مشاغل الدولة وجد الأمر ؛ فكثر بذلك مجونهم وعذب تندرهم ، استمع الى أبي الحسين الجزار من القرن السابع يصف الكنافة والقطائف متندرا

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر ‏ وجاد عليها سكرا دائم الدر

وتبا لأوقات المخلل إنهـــا ‏ تمر بلا نفع وتحسب من عمرى

أهيم غراما كلما ذكر الحمى ‏ وليس الحمى إلا الكنافة فى الفطر

وأشتاق إن هبت نسيم قطائف السـ ‏ ـحور سحيرا وهى عاطرة النشر

ولى زوجة إن تشتهى قاهرية ‏ أقول لها ما القاهرية فى مصر

واستمع الى ابراهيم المعمارى من القرن الثامن يتلاعب فى مجونه بالامير طشتمر الذى كاد يلقب « حمص أخضر » فيقول

أوردت نفسك ذلا ‏ ورد النفوس المهانه

وبالدنا حزت مالا ‏ ملأت منه الخزانه

وكم عليك قلوب ‏ ياحمص اخضر ملانه

ويقول

جننت بالملك لما ‏ أتاك بالبسط ماجن

وقد أمنت الليالى ‏ ياحمص اخضر وداجن

ثم استمع إلى الشهاب المنصورى من القرن التاسع يداعب محب الدين الحلبي وكان يميل إلى الاحداث .

في ملاح لك شتى ... صيف القلب وشتى
كم ليال مع مليح ... يا محب الدين بتا
خده بستان حسن ... حبذا البستان بستا
أنت بالصبيان صب ... لو رأيت البنت بنتا

وقد أخذ هذا الفن يستكمل كماله بمصر منذ قدمها زعيمه شمس الدين بن دانيال الموصلى أيام الظاهر بيبرس، فأقام بالقاهرة بقية حياته، وكانت تلك البقية قرابة نصف قرن، وهو صاحب كتاب «طيف الخيال» المنوه عنه آنفا حين جاء ذكر القصص الهزلى لما كثر فيه من المجون والخلاعة ، ومن مجونه قوله يصف فقره ومنزله وثيابه

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى ... ما فى يدى من فاقة إلا يدى
فى منزل لم يحو غيرى قاعدا ... فاذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ... ومخدة كانت لأم المهتـــدى
ملقى على طراحة فى حشوها ... قمل كمثل السمسم المتبـــدد
والفأر تركض كالخيول تسابقت ... من كل جرداء الأديم وأجرد
هذا ولى ثوب تراه مرقعـــا ... من كل لون مثل ريش الهدهد

وقوله يصف برذونه وقد أصيب بالعرج بعد العمى

قد كمل الله برذوني لمنقصة ... وشانه بعـــد ما أعماه بالعرج
أسير مثل أسير وهو يعرج بى ... كأنه ماشـيا ينحط من درج
فان رماني على ما فيه من عرج ... فما عليه إذا ما مت من حرج

وقوله لصاحب عرس دعاه إليه معرضا بنفسه أيضا :

دعوتنى للعرس ياسيدى فكدت أن أحضر من أمس
وهأنا الليلة فى داركم فالكلب مايهرب من عرس

هذا وانا لناقلون عن ابن دانيال نفسه ما رواه عنه ابن إياس فى الدلالة على أنه كان ممعنا فى الخلاعة والمجون مكتفين من قصيدته بالقليل، وهذا ما روى

قال الشيخ شمس الدين بن دانيال صاحب كتاب طيف الخيال: لما قدمت من الموصل إلى الديار المصرية فى الدولة الظاهرية، سقى الله من سحب الانعام عهدها وأعذب مشارب وردها، فوجدت مواطن الأنس دارسه ، وأرباب اللهو والخلاعة غير آنسه ، ومن لذة العيش آيسه ، وهزم أمر السلطان جيش الشيطان، وتولى الخوان والى القاهرة إهراق الخمور، وإحراق الحشيش وتبديد الزور، واستتاب العلوق واللواطى ، وحجز البغايا والخواطى ؛ وشاعت بذلك الأخبار، ووقع الانكار ، واختفى المسطول فى الدار ؛ وقد آذى الخلاعة غاية الأذية ، وصلب ابن الكازروني وفى رقبته نباذية ؛ فدعانى بعض أصدقائى إلى محله ؛ وأنزلنى من عياله وأهله ، واعتذر إلى عن تقصيره فى الاكرام، إذا لم يأتنى بعدام ، وقال ، قد غلب على ظنى أن أبا مرة قد مات وعد من الرفات ، فقم بنا نبكيه ؛ ونصف الحال ونرثيه ؛ فابتدأت وقلت فى معنى الوقعة التى وقعت

مات ياقوم شيخنا إبليس وخلا منه ربعه المأنوس
ونعانى حدسى به إذ توفى ولعمرى مماته محدوس

هو لو لم يكن كما قلت ميتا　　لم يغير لأمره ناموس

وبعد أن عدد أنواع الملاهى التى عطلت ناعيا لها باكيا عليها ختم القصيدة بقوله عن شيخه إبليس

من لنا بعد ذلك الشيخ إلف　　وسمير ومؤنس وأنيس

لا ترى بعده ضاحك السـ　　ـن وكل يبدو له تعبيس

فسأبكيه أرمد العين حتى　　لشفائى يعود جالينوس

٧ — الغزل والخمريات

عاش الغزل فى هذا العصر لدى معظم الشعراء على كنف المدح، يبتدئون به قصيده إلا فى النادر القليل، كما كانت عادة الاقدمين، ولذا كان غزلا غير مقصود لذاته، وكان صناعيا أكثر منه عن طبيعة وحب، ولكنهم مع هذا كانوا يطيلون فيه أحيانا حتى يتجاوز المدح فى القصيدة، ولا سيما عند الشعراء المكثرين كابن نباتة وابن مليك، وقد اخترنا نبذة منه فى مطلع قصيدة الأول التى مرت بالنماذج فى مدح الملك الناصر، وإليك نبذة للثانى من مدحة فى الامير خليل الشيبانى.

محب لبعد الدار عزت رسائله　　وليس له يوما صديق يراسله

حليف غرام قد جفا جفنه الكرى　　ورقت لما يلقى عليه عواذله

ولم يستطع يوما فراغا من الهوى　　وكيف ومن يهواه بالحب شاغله

كلفت به بدرا بديع محاسـ　　ـن بقلبى وطرفى حل وهى منازله

يروقك حسنا لحظه وعـذاره　　وما هو الا سـيفه وحمائله

وما البدر الا ما حواه لثامه　　وما الغصن إلا ما حوته غلائله

إلى مقلتيه معظم السحر ينتمى   كأن بها هاروت حلت بلابله
على البدر حقا ساد فى الوصف مثلما   بمدح خليل ساد فى الناس قائله
جواد، إذا ما السحب جادت بو بلها   فما هى الا راحتـــاه ونائله

وكذلك كانت — ولكن على قلة — حياة الخمر. فقد شاركت الغزل فى بدء القصيد أحيانا، كما قال ابن نباتة من مطلع إحدى مطولاته فى المؤيد إسماعيل

عوض بكأسك ما أتلفت من نشب   فالكأس من فضة والراح من ذهب
واخطب الى الشرب أم الدهر ان نسبت   أخت المسرة واللهو ابنة العنب
غراء حالية الأعطاف تخطر فى   ثوب من النور أو عقد من الحبب
عذراء تنجز ميعاد السرور فما   تومى إليك بكف غير مختضب
مصونة تجعل الأستار ظاهرة   وجنة تتلقى العـين باللهب
لو لم يكن من لقاها غير راحتنا   من حرفة المتعبين العقل والادب
فهات واشرب إلى ألا يبين لنا   أنحن فى صعد نستن أم صبب
يا حبذا الراح للارواح سارية   تقضى بسعد سراها أنجم الحبب
من كف أغيد تروى عن شمائله   عن خده المشتهى عن ثغره الشنب
جادت جفونى بحمر الدموع له   جود المؤيد للعافين بالذهب

وأحيانا كان الشاعر يجمع بين الغزل والخمر فى بدء قصائد المديح، كما قال ابن مليك فى قاضى القضاة أبي السعود :

قسما بليل الشعر منك إذا سجا   وبنور وجهك إنه بدر الدجا
ما لاح فرقك بالسنـــا متهللا   الا رأيت الفجر منه تبلجا
من لى به حلو المعاطف لم يزل   بدم القلوب الخد منه مضرجا

وكأنما اعتصرت لنا من خده   راح بغير رضابه لن تمزجا
حمراء قد أبدت بكف مديرها   نارا بها قلبي يزيد تأججا
يا قاتل الله العذول فانه   أبدى الملام سفاهة وتبهرجا
لا نلت سؤلي ان سلوت ولا سرت   يوما لبحر الجود بي سفن الرجا
قاضي القضاة أبي السعود ومن به   تلك المعالي بالمعاني أسرجا

وقد كان للغزل والخمر انفراد عن المديح لدى بعض الشعراء الذين أخلصوا لهما وأفرغوا فيهما كل شعرهم، حتى لا تكاد تجد لهما في دواوينهم من شريك ؛ كشهاب الدين التلعفري الذي نوهنا عنه بذلك في النماذج، واخترنا له فيها الكثير، من الغزل والخمر وما يتصل بهما كالطيف ، أما لدى غير هؤلاء المخلصين من الشعراء فقد كان هذان الفنان لا يلمان بأشعارهم إلا ندرة ، وفي قليل الابيات ، ومن هذا القليل الجميل في الغزل قول ابن اللبانة من القرن الثامن

هلا ثناك على قلب مشفق   لترى فراشا في فراش يحرق
قد صرت كالرمق الذي لا يرتجى   وبقيت كالنفس الذي لا يلحق
لو في يدي سحر وعندي قوة   لجعلت قلبك كل يوم يعشق
لتذوق ماقد ذقت من ألم الهوى   فترق لي مما تراه وتشفق

ومنه في الخمر قول صدر الدين الوكيل من القرن الثامن أيضا

عناصر أربع في الكأس قد جمعت   وفوقها الفلك السيار والشهب
ماء ونار هواء أرضها قدح   وطوقها فلك والأنجم الحبب
وان تقطب وجهي حين تبسم لي   فعند بسط الموالي يحفظ الادب

وقد شاع في هذا العصر الغزل في الجواري المولدات، الحبش والسود،

منذ أن بدا من الملك الصالح إسماعيل حفيد قلاوون ميل اليهن، كما قال بعضهم وهو يذكر الخال

يكون الخال فى خد قبيح — فيكسوه الملاحة والجمالا
فكيف يلام معشوق على من — يراه كله فى العين خالا

وكما قال آخر مرددا الأسماء المحببة فى الجوارى

إذا زار الحبيب على اشتياق — فقد زال العنا وقت الصباح
وان وافتك خمر مع نسيم — فقد دام السرور بالانشراح

٨ — الزهد والتصوف

لقد كان استئثار المماليك ورجالهم من بنى جنسهم بالنفوذ والسلطان، ويأس أهل البلاد الأصلاء من أن يشاركوهم فيه. دافعا إلى بعض هؤلاء أن يزهدوا فى هذه الحياة الدنيا، ويرغبوا عنها إلى الحياة الآخرة، وحلا للشعراء منهم أن يسجلوا هذا الزهد فى أشعارهم وأن يدعوا اليه أحيانا: ومن ثم كان شعر الزهد، وتجده أكثر ماتجد إذا استحكم اليأس وقست الحياة وحيل بين صاحبه وبين الذى يشتهى كابن نباتة حيث يقول:

عفت الاقامة فى الدنيا لو انشرحت — حالى فكيف وماحظى سوى النكد
وقد صدئت ولى تحت التراب جلا — إن التراب لجلاء لكل صدى
لاعار فى أدبي أن لم أنل رتبا — وإنما العار فى دهرى وفى بلدى
هذا كلامى وذا حظى فياعجبا — منى لثروة لفظ وافتقار يد
وماعجبت لدهر ذبت منه أسى — لكن عجبت لضد ذاب من حسد
أصبحت لاأجتوى عيش الخمول ولا — إلى المراتب أرمى طرف مجتهد

أما التصوف فانه لما حكم المماليك بعد الأيوبيين الذين أدخلوا فى مصر نظام الخوانق والربط والزوايا، وكلها دور يلجأ اليها الزهاد الذين ينقطعون للعبادة فتجرى عليهم فيها الارزاق منذ أن أنشأ صلاح الدين خانقاه «دار سعيد السعداء» مقابل دار الوزارة الفاطمية ونشأ بذلك التصوف وأخذ أمره فى الانتشار حتى جاء فى آخر هـــذه الدولة عمر بن الفارض فنشر شعر التصوف كما هو معروف ، لم يشأ المماليك أن يقفوا هذا التيار ؛ بل لعلهم ساعدوا على اطراده لما فيه من تحبيب العامة فيهم وتلهية الناس عنهم . فأنشأ ركن الدين بيبرس الجاشنكير أحد أمراء المنصور قلاوون الخانقاه المنسوبة اليه ، قبل أن يلى السلطنة بدار الوزارة الكبرى الفاطمية على أكثر من فدان أرض ، وأسكن بها أربعمائة صوفى ، وحبس عليها أوقافا يكفى ريعها نفقاتها ، ثم أنشأ الملك الناصر فى ولايته الثالثة خانقاه «سرياقوس» ولقب شيخها بشيخ الشيوخ ، فعمرت هذه البرية القريبة من القاهرة ببناء الناس وسكناهم حولها وكانت من ذلك قرية سرياقوس ذات السوق العظيمة المعفية سلعها من المكوس إذ ذاك احتراما لمكان هذه الخانقاه ، التى قال فيها أحد شعراء زمانها

سر نحو سرياقوس وانزل بفنا ... أرجائها ياذا النهى والرشد
تلق محلا للسرور والهنا ... فيه مقام للتقى والزهد
نسيمه يقول فى مسيره ... تنبهى ياعذبات الرند
وروضه الريان من خليجه ... يقول دع ذكر أراضى نجد

أما الربط فكان منها بهذا العهد رباط المشتهى بروضة المقياس وفيه يقول

شهاب الدين الدمنهورى

بروضة المقياس صوفية　　هم منية الخاطر والمشتهى
لهم على البحر أياد علت　　وشيخهم ذاك له المنتهى

ومن زواياه الشهيرة زاوية الشيخ خضر بخط زقاق الكحل خارج باب الفتوح أنشأها لذلك الشيخ، الظاهر بيبرس بعد أن انتهى من حروبه منتصرا، وكان الشيخ خضر يلازمه فيها، وفى ذلك يقول الشريف بن رضوان

ما الظاهر السلطان إلا ملك الدنـــيا بذاك لنا الملاحم تخبر
ولنا دليل واضح كالشمس فى　　وسط السماء لكل عين تنظر
لما رأينا الخضر يقدم جيشه　　أبدا علمنا أنه الاسكندر

وعلى ذلك سارت سياسة المماليك الشراكسة ؛ فكانت خانقاه الظاهر برقوق بخط بين القصرين ، ورباط الخازن قرب قبة الامام الشافعى للأمير علم الدين سنجر بن عبد الله الخازن ، وزاوية الابناسى بخط المقسى، نسبة الى الشيخ الورع برهان الدين ابراهيم الابناسى الشافعى، الذى أبى أن يقلد قضاء القضاة حين طلب له وآثر عليه الزهد والتصوف .

بهذا كله كثر الشعر الصوفى مع شعر الزهد، ووجدت مباريات بين الشعراء تشيعا لبعض الصوفية على بعض ، ومن ذلك ما أشرنا اليه سابقا بشعر العصبية المذهبية فيما كان لابن الفارض وعليه ؛ فى هذا العصر الذى نحن فيه بعد عصره السابق له . ومما قيل دفاعا عنه فى وجه برهان الدين البقاعي المذكور آنفا، قول الشهاب المنصورى مضمنا

بعض أشطار من مطولة ابن الفارض التى مطلعها

مابين معترك الأحداق والمهج　　　أنا القتيل بلا إثم ولا حرج

على لسان ابن الفارض كأنه يخاطب البقاعى

ماذا تقول ولى فى الشرع أجوبة　　　عنى تقوم بها عند الهوى حججى
دع التعارض لا تشهر بواتره　　　فكم أماتت وأحيت فيه من مهج
فلو سلكت سبيلى كنت متبعا　　　أو فى محب بما يرضيك مبتهج
لو سلم المعتدى للمهتدى لرجا　　　قول المبشر بعد اليأس بالفرج
فمن يكن منهما ناج فعصبته　　　هم أهل بدر فلا يخشون من حرج

ومن أحسن ماقيل فى هذا المعرض، قول بعض شعراء هذا العصر وينسبه على سبط ابن الفارض لنفسه

جز بالقرافة تحت ذيل العارض　　　وقل السلام عليك يابن الفارض
أبرزت فى نظم السلوك عجائبا　　　وكشفت عن سر مصون غامض
وشربت من بحر المحبة والولا　　　فرويت من بحر محيط فائض

٩ — الوصف

تناول الوصف فى هذا العصر كثيرا من ظواهر الطبيعة. ومظاهر الحضارة، وأشياء حسية أخرى، من شأنها أن تستوقف نظر الشاعر وتثير وجدانه، فيتناولها خياله كما يتناول الناحيتين المذكورتين من ظواهر ومظاهر.

فأما ظواهر الطبيعة فقد كان من أوائل مااسترعى أنظار الشعراء فيها النيل، من حيث ظهور لونه أبيض بمائه وأخضب بطميه، كما يقول محيى الدين بن عبد الظاهر

نيل مصر لمن تأمـــل مرأى حسنه معجز وبالحسن معجب
كم به شاب فودها وعجيب كيف شابت بالنيل والنيل يخضب

أو من حيث تضمخه الأرض بصندل مائه حين يرى مابها من شقيق ،
كما قال شمس الدين بن دانيال

كأنما النيـــل الخضم اذ بدا يروى حديثا وهو ذو تسلسل
لما رأى الارض بها شقيقه ضمخهــا بمـائه المصندل

أو من حيث تفريجه الأفق أمام من تضيق فى وجهه الدنيا كما قال
الصلاح الصفدى

رأيت فى أرض مصر مذحللت بها عجائبا ما رآها الناس فى جيل
تسود فى عينى الدنيا فلم أرها تبيض الا اذا ماكنت فى النيل

وكذلك استرعت أنظار الشعراء أنهار الشام كما يقول الصفدى
فى مداعبة النسيم لوجه ماء أحدها

النهر مولى والنسيم خديمه هذا كلام لست فيه أشكك
لولم يكن فى خدمة النهر انبرى ماكان يصقل ثوبه ويفرك

ومن المناظر التى يتصل وصفها بوصف النيل «البرك» ولا سيما بركة
الحبش بظاهر مدينة الفسطاط بين الجبل والنيل ؛ وقد فتن بها الشعراء
منذ القديم ، وممن أجادوا وصفها فى هذا العصر تقى الدين المقريزى
فى قوله

يابركة الحبش التى يومى بها طول الزمان مبارك وسعيد
حتى كأنك فى البسيطة جنة وكأن دهرى كله بك عيد
ياحسن مايبدو بك الكتان فى نواره وإزاره معقود

والماء منك سيوفه مسلولة والقرط فيك رواقه ممدود

وكأن أبراجا عليك عرائس جليت وطيرك حولها غريد

ياليت شعرى هل زمانك عائد فالشوق فيه مبدىء ومعيد

وكذلك كانت جزيرة الروضة المعروفة بجزيرة المقياس أو الجزيرة الصالحية ، وفيها يقول المقريزى أيضا

تأمل لحسن الصالحية اذ بدت وأبراجها مثل النجوم تلالا

وللقلعة الغراء كالبدر طالعا تفرج صدر الماء عنه هلالا

ووافى اليها النيل من بعد غاية كما زار مشغوف يروم وصالا

وعانقها من فرط شوق لحسنها فمد يمينا نحوها وشمالا

جرى قادما بالسعد فاختط حولها من السعد أعلاما فزاد دلالا

وعلى ذكر المقريزى لمنظر الكتان مع بركة الحبش نقول، وان له فيه لوصفا بديعا حول الخليج وقد ضاق ونحل بأرض الطبالة فى ظاهر القاهرة يقول فيه

أنظر الى النهر والكتان يرمقه من جانبيه بأجفان لها حدق

رأته سيفا عليه للصبا شطب فقابلته بأحداق بها أرق

وأصبحت فى يد الأرواح تنسجها حتى غدت حلقا من فوقها حلق

فقم وزرها ووجه الأفق متضح أو عند صفرته إن كنت تغتبق

وقد كان للرياض شأن أى شأن فى تناول الشعراء لها ولما فيها من أزهار ورياحين وثمار،

قال الشهاب محمود بن فضل الله يصف روضا، وسرى فى نهر، من بدء مدحة له فى الأمير إلجاى الدوادار

مابين أكناف البطاح   مسك يذر على الرياح
من حيث يلفى الروض فى   أزهـــاره ريان ضاحى
والريح فى السحر البهيم   يطير مسكى الجناح
تسرى فتغتبق الغصـو   ن بها على عين الصباح
والنيل فى تيـــاره المنـ   ـصب مهتز الصفاح
وبه السفائن كالجبـــا   ل تجول أمثال القداح
فركبت من صهواتها   دهماء ساكنة الجماح
حراقة تجرى على اسـ   ـم الله فى الماء القراح
والأفق مثـل حديقة   خضراء مزهرة النواحى
يحكى المجـرة بينها   نهر تدفق فى أقاحى
واقتادت الجوزاء للسيـ   ـل البهيم الى الرواح
فـكأنه زنجيـــة   حزمت بأطراف الوشاح
وبدا الصباح كوجه إلـ   ـجاى المهلل لامتداحى

وقال ابن عبد الظاهر يصف روضا من ناحية أخرى :

روض به أشياء ليـ   ـست فى سواه تؤلف
فمن الهزار تهـازر   ومن القضيب تقصف
ومن النسيم تلطف   ومن الغدير تعطف

وقال يصف مشمشا

جند مشمش على الدوح أضحى   ذاشعاع يستوقف الأبصارا
شجر أخضر لنا جعل الا   ه تعالى منه كما قال نارا

وله فى الياسمين

وياسمين قد بدت أزهاره لمن يصف
كمثل ثوب أخضر عليه قطن قد ندف

وللصفدى فى الربيع وفتنة الأطيار به

لما زها زهر الربيع بروضة وغدا له الفضل المبين عليه
قام الحمام له خطيبا بالثنا وجرى الغدير نخر بين يديه

ولشمس الدين بن التلمسانى فى ذلك أيضا

ولما جلا فصل الربيع محاسنا وصفق ماء النهر إذ غرد القمرى
أتاه النسيم الرطب رقص دوحه فنقط وجه الماء بالذهب المصرى

وقال فى ذلك أيضا من وجه آخر

تغنت فى ذرا الأوراق ورق ففى الافنان من طرب فنون
وكم بسمت ثغور الزهر عجبا وبالا كمام قد رقصت غصون

ونعود الى الشهاب محمود فنقول . وقال يصف سروا قد غمر أسافله الماء

والسرو مثل عرائس لفت عليهن الملاء
شمرن فضل الأزرعن سوق خلاخلهن ماء
والنهر كالمرآة تبصر وجهها فيه السماء

وأما مظاهر الحضارة فقد كانت منها المدن والقصور والمدارس والمساجد وغيرها .

وهذى أبيات من مطولة للمقريزى فى وصف مدينة دمياط وما حولها من مناظر ومتنزهات .

فلله أنهار تحف بروضها لكالمرهف المصقول أوصفحة الخلد

وبشنينها الريان يحكي متيما … تبدل من وصل الأحبة بالصد
فقام على رجليه فى الدمع غارقا … وراعى نجوم الليل من وحشة الفقد
وظل على الأقدام تحسب أنه … لطول انتظار من حبيب على وعد
ولا سيما تلك النواعير إنها … تجدد حزن الواله المدنف الفرد
أطارحها شجوى وصارت كأنما … تطارح شكواها بمثل الذى أبدى
فقد خلتها الأفلاك فيها نجومها … تدور بمحض النفع منها وبالسعد
وفى البرك الغراء ياحسن نوفر … حلا وغدا بالزهو يسطو على الورد
سماء من البلور فيها كواكب … عجيبة صبغ اللون محكمة النضد
وفى مرج البحرين جم عجائب … تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
كأن التقاء النيل بالبحر إذ غدا … مليكان سار فى الجحافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا … ولا طعن إلا بالمثقفة الملد
فظلا كما باتا وما برحا كما … هما من جليل الخطب فى أعظم الجهد

ومما يتصل بوصف المدن ماتقدم للشهاب المنصورى بالنماذج فى وصف شوارع القاهرة حين وسعت ورفعت عنها سقوفها.

وقال بعض الشعراء فى إيوان الملك الناصر من مدحة

شرفت إيوانا جلست بصدره … فشرحت بالاحسان منه صدورا
قد كاد يستعلى الفراقد رفعة … إذ حاز منك الناصر المنصورا
ملك الزمان ومن رعية ملكه … من عدله لايظلمون نقيرا
لازال منصور اللواء مؤيدا … أبد الزمان وجنده مقهورا

وقال البوصيرى يصف مدرسة المنصور قلاوون بجوار المارستان

ومدرسة ود الخورنق أنه … لديها حظير والسدير غدير

مدينة علم والمـــدارس حولها ... قرى أو نجوم بدرهن منير
تبدت فأخفى الظاهرية نورها ... وليس بظهر للنجوم ظهور
بناء كأن النحل هندس شكله ... ولانت له كالشمع فيه صخور
بناها سعيد فى بقاع سعيدة ... بها سعدت قبل المدارس دور
ومن حيثما وجهت وجهك نحوها ... تلقتك منهـا نضرة وسرور
إذا قام يدعو الله فيها مؤذن ... فما هو إلا للنجوم سمـــير

وقال السراج الوراق يصف جامع الصاحب لآل حنا الوزراء على بركة الحبش

بنيتم على تقوى من الله مسجدا ... وخير مباني العابدين المساجد
فقل فى طراز معلم فوق بركة ... على حسنها الزاهى لها البحر حاسد
لها حلل حسنى ولكن طرازها ... من الجامع المعمور بالله واحد
هو الجامع الأحسان والحسن الذى ... أقـــر له زيد وعمرو وخالد
وقد صافحت شهب الدجى شرفاته ... فما هى بين الشهب إلا فراقد
وقد أرشد الضلال عالى مناره ... فلا حائر عنه ولا عنـه حائد
ونالت نواقيس الديارات رجفة ... وخوف فلم يمدد اليهن ساعد
فتبكى عليهن البطاريق فى الدجى ... وهن لديهم ملقيات كواسد
«بذا قضت الأيام مابين أهلها ... مصائب قوم عند قوم فوائد»

أما الأشياء الحسية الأخرى فكان منها وصف الهرمين وأبى الهول كما سبق للشهاب المنصورى، وكما يقول فخر الدين عبدالوهاب المصرى، فيهما ناحيا منحى السر فى إقامتهما والعظة بهما

أمبانى الاهرام كم من واعظ ... صدع القلوب ولم يفه بلسانه
أذكرتنى قولا تقادم عهـــده ... «أين الذى الهرمان من بنيانه»

هن الجبال الشامخات تكاد أن   تمتد فوق الارض عن كيوانه
لو أن كسرى جالس فى سفحها   لأجل مجلسه على إيوانه
ثبتت على حر الزمان وبرده   مددا ولم تأسف على حدثانه
والشمس فى إحراقها والريح عند هبوبها والسيل فى جريانه
هل عابد قد خصها بعبادة   فمبانىُ الأهرام من أوثانه
أو قائل يقضى برجعى نفسه   من بعد فرقته الى جثمانه
فاختارها لكنوزه وجسمه   قبرا ليأمن من أذى طوفانه
أو أنها للسائرات مراصد   يختار واحدها أعز مكانه
أو أنها وصفت شئون كواكب   أحكام فرس الدهر أو يونانه
أو أنهم نقشوا على حيطانها   علما يحار الفكر فى تبيانه
فى قلب رائيها ليعلم نقشها   فكر يعض عليه طرف بنانه

وكان منها حمام الرسائل، كما يقول أبو محمد أحمد بن علوى، بن أبي عقبال،

خضر تفوق الريح فى طيرانها   يابعد بين غدوها ورواحها
تأتى بأخبار الغداة عشية   لمسير شهر تحت ريش جناحها
وكأنما الروح الأمين بوجهه   نفث الهداية منه فى أرواحها

وكما يقول آخر من مطولة

ياحبذا الطائر الميمون يطرقنا   فى الأمر بالطائر الميمون تنبيها
فاقت على الهدهد المذكور إذ حملت   كتب الملوك وصانتها أعاليها
تلقى بكل كتاب نحو صاحبه   تصون نظرته صونا وتخفيها
فما تمكن عين الشمس تنظره   ولا تجوز أن تلقيه من فيها
منسوبة لرسالات الملوك فبالمـ   ـنسوب تسمو ويدعوها تسميها

وكان منها ما يتصل بالأحداث المخربة أو المؤلمة ، كوصف شهاب الدين بن أبى حجلة غارة الفرنج على الأسكندرية سنة ٨٩٧ وما حدث فيها من نهب وقتل .

ألا فى سبيل الله ماحل بالثغر　　على فرقة الاسلام من عصبة الكفر
أتاها من الأفرنج سبعون مركبا　　وضاقت بها العربان فى البر والبحر
وصير منها أزرق البحر أسودا　　بنو الأصفر الباغون بالبيض والسمر
أتوا نحوها هجما على حين غفلة　　وباعهم فى الحرب يقصر عن فتر
فكم من فقير عاش فيها من الغنى　　وكم من غنى مات فيها من الفقر
نثرت دموعى يوم فرط نظامهم　　فياليت شعرى من يبلغهم نثرى

وكوصف شهاب الدين بن العطار حريق دار تفاح خارج باب زويلة سنة ٧٧٩

أرتنا دار تفاح بليل　　حريقا وقده أمسى عظيما
ونالت بعد ذاك النور نارا　　وكانت جنة فغدت جحيما

وكوصف الصفدى لطاعون سنة ٧٤٩

لا تثق بالحياة طرفة عين　　فى زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع　　والبرايا لهـا فراش تطير

وكقول بعضهم فى الخبز وقد عز بالقاهرة سنة ٨٥٣ وغلا سعره .

قسما بلوح الخبز عنـد خروجه　　من فرنه وله الغـــداة فوار
ورغائف منه تروقك وهى فى　　سحب النفـــال كأنها أقمار
من كل مصقول السوالف أحمر الـ　　ـخدين للشونيز فيه عذار

كالفضة البيضاء لكن يغتدى ذهبا إذا قويت عليه النار
تلقى عليه فى الخوان جلالة لاتستطيع تحدها الأبصار
فكأن باطنه بكفك درهم وكأن ظاهر لونه دينار
ما كان أجهلنا بواجب حقه لولم تبينه لنا الأسعار
إن دام هذا السعر فاعلم أنه لاحبة تبقى ولا معيار

ثم كان منها مايتصل بمواكب السرور والافراح، كما قال ابن إياس يصف موكب خوند الخاصكية فى زفافها من منزلها بقنطرة سنقر الى الملك العادل طومان باى بالقلعة .

عادت خوند إلى سرور ثان مذ زوجت بالعادل السلطان
فى وجهها الأقبال والبشر الذى يتقاولون به بكل لسان
طلعت كشمس الأفق ضمن محفة تجلى كحور العين وسط جنان
فى موكب يحكى مواكب قيصر فاقت على كسرى أنوشروان
لما أتت عند الصعود لقلعة نثرت عليها الدر كالعقيان
عادت إلى الاوطان فى بشر وفى عز وإقبال وصفو زمان
نالت مراتب عزها مذ أقبلت عاد السرور بمقدم السكان
واستبشرت أزهار أغصان الربا فرحا بها فى دوحة البستان
بحر السماح غدا براحة كفها يروى العطاش بمنهل الاحسان
وتجود من فيض الندى بمكارم فيكون فيه شفاء للظمآن
فالله يكفيها مئونة حاسد ويطيل أياما لها بأمان
ما ماس غصن فى الرياض وكللت أيدى الغمام شقائق النعمان

تلك أهم النواحى الحسية التى كان يتناولها الشعراء بالوصف ، وعلى ما كان لهم من كثرة فيها كانت أوصافهم فى النواحى المعنوية قليلة بعكس ما كان عليه أسلافهم فى العصر السابق ، وقد رأيت بالنماذج من هذه الأوصاف المعنوية وصف ابن نباتة لشعر صديقه، ووصف التلعفرى لثقافة الشهاب العمادى ، ووصف ابن مليك لأهل زمنه :

وإليك وصفين آخرين فى ناحيتى ألم وسرور ،

أحدهما لزين الدين عمر بن حلاوات يصف قسوة الأمير بكتمر الحاجب بصفد فيقول

ياقاصدا صفدا فعد عن بلدة	من جور بكتمر الأمير خراب
لاشافع تغنى شفاعته ولا	جان له ماجناه متاب
حشر وميزان ونشر صحائف	وجرائد معروضة وحساب
وبها زبانية تحث على الورى	وسلاسل ومقامع وعقاب
ما فاتهم من كل ما وعدوا به	فى الحشر إلا راحم وهاب

والثاني لبعض الشعراء يصف خديجة الرحابية أشهر مغنيات مصر العربيات فى سلطنة قايتباى،وكانت ذات حسن وجمال

رحابية يخفى الشموس جمالها	لها حسن إنشاد يزين مقالها
وقد قابلت بالبدر ليلة تمه	فما زال من عينى وقلبى خيالها

١٠ — الشعر العلمى

كثر الشعر العلمى فى هذا العصر على العكس منه فى العصر السابق ، لأنه كان عصر تأليف الموسوعات التى أحس العلماء

إزاءها بالعجز عن التحصيل، فعمدوا إلى تأليف المتون، وأكثر ماكانت نظما لسهولة الحفظ والتحصيل، وقد تناولت المتون المنظومة كل العلوم تقريبا وبخاصة علما العربية الاساسيان النحو والصرف، ويكفى أن تعلم عن ابن مالك وحده من علماء هذا العصر أن له منظومة فيهما باسم « الكافية الشافية » فى نحو ثلاثة آلاف بيت ومنها لخص ألفيته، كما أن له لامية الأفعال وقد سبق التنويه عنهما حيث الكلام على النحو والصرف، وله من المنظومات اللغوية همزية باسم « تحفة المودود فى المقصور والممدود » وهى أرجوزة فى نحو ثلاثة آلاف بيت فى الألفاظ التى لكل منها ثلاثة معان تختلف باختلاف الحركات، وقد سبق التنويه عنها حيث الكلام على اللغة

ومن العلوم التى تناولها الشعر بالنظم فى هذا العصر على إفاضة وسعة علم التاريخ، ومن ذلك أرجوزة جمال الدين المصرى المعروف بالجزار المسماة « العقود الدرية فى الأمراء المصرية » وقد ضمنها ذكر أمراء مصر من عمرو بن العاص الى الملك الظاهر بيبرس، وهى فى أكثر من مائة بيت، وقد أكملها حمزة بن على الحسينى الى الملك الصالح بن الناصر، ثم أكملها السيوطى الى الناصر محمد بن الاشرف قايتباى حيث زمنه، ومنه قصيدة شرف الدين بن فضل الله المسماة « حسن الوفاء بمشاهير الخلفاء » يعنى خلفاء العباسيين بمصر إلى عهد الحاكم فى سلطنة الناصر محمد الثانية. وقصيدة الحافظ أبي الفضل بن حجر فى الخليفة المستعين حين تولى السلطنة مع الخلافة بعد خلع الناصر فرج بن برقوق. ومنه أرجوزة ابن دانيال الموصلى التى تقرب من مائة بيت والتى نظم فيها

من ولوا قضاء مصر منذ فتحت الى عهد البدر بن جماعة الذى عزل لكف بصره سنة ٧٢٧ فى سلطنة الملك الناصر الثالثة ، وقد ذيلها السيوطى حتى وصل إلى الشيخ زكريا محمد الانصارى السبكي فى عهده.

ومما ينبغي أن يتفكه به فى هذا الفن من الشعر هنا، ماذكره ابن إياس عن نظم عقد بيع وشراء قال :

«قال الشيخ عماد الدين إسماعيل بن كثير فى تاريخه، إن الشيخ زين الدين عمر بن الوردى المظفر المعرى دخل إلى الشام وكان ضيق المعيشة رث الهيئة ردىء المنظر فحضر إلى مجلس القاضي نجم الدين بن صصرى من جملة الشهود فاستخفوا به وأجلسوه فى طرف المجلس، وجاءت مبايعة مشترى ملك فقال بعضهم على سبيل الاستهزاء أعطوا المعرى هذه المبايعة يكتبها لكم. فقال أكتبها نظما أو نثرا. فتزايد استهزاؤهم وقالوا بل نظما. فأخذ ورقة وقلما وكتب هذا العقد رجزا على البديهة،

باسم إله الخلق هذا ما اشترى   محمد بن يونس بن سنقرا
من مالك بن أحمد بن الأزرق   كلاهما قد عرفا من جلق
فباعه قطعة أرض واقعه   بكورة الغوطة وهى جامعه
لشجر مختلف الأجناس   والأرض فى البيع مع الفراس
وذرع هذى الأرض بالذراع   عشرون فى الطول بلا نزاع
وحدها من قبله ملك التقى   وجابر الرومى حد المشرق
ومن شمال ملك أولاد على   والغرب ملك عامر بن جهبل
وهذه تعرف من قديم   بأنها قطعة بيت الرومى
بيعا صحيحا ماضيا شرعيا   ثم شراء قاطعا مرعيا

بثمن مبلغه من فضه وازنة جيدة مبيضه
جارية للناس فى المعامله ألفان منها النصف ألف كامله
وسلم الأرض إلى من اشترى فقبض القطعة منه وجرى
بينهما بالبدن التفرق طوعا فما لأحد تعلق
ثم ضمان الدرك المشهور فيه على بائعه المذكور
وأشهدوا عليهما بذاك فى رابع عشر رمضان الاشرف
من عام سبعمائة وعشره من بعد خمسة تليها الهجره
والحمد لله وصلى ربى على النبى وآله والصحب
يشهد بالمضمون من هذا عمر ابن المظفر المعرى اذ حضر

فلما فرغ من نظمه ووضع الورقة بين يدى الشهود تأملوا هذا النظم اللطيف مع سرعة الارتجال، فقبلوا يده واعتذروا له من التقصير فى حقه واعترفوا بفضيلته عليهم، ثم إنه قال لبعض من فى المجلس. اشهد معى فى هذه الورقة بخطك فقال له ياسيدى أنا ما أحسن النظم فقال ما اسمك قال أحمد بن رسول فكتب الشيخ عنه هذا البيت

قد حضر العقد الصحيح أحمد ابن رسول وبذاك يشهد

ثانيا — ناحية المعانى والأخيله

لم يكن شعراء هذا العصر ذوى فضل بارز فى هذه الناحية كما كانوا فى ناحية الألفاظ والأساليب اللاحقة، ولا ذوى فضل موصوف كما كانوا فى ناحية الأغراض والفنون السابقة؛ إنما كانوا على حال وسط تستند إلى وعى كثير منهم للقديم وحسن استخدامهم له، وإلى قدرة بعضهم القليل على ابتداع المعاني وابتكار الأخيلة؛ ولعلهم فى هذا جد معذورين. ذلك بأنه إذ استبحرت العلوم ونضجت الفلسفات فى العصر العباسى الأول، وآل الأمر فى مبتدأ العصر العباسى الثانى إلى ملوك عرب، كما كانت الحال بمصر أيام الفاطميين، وبشمال الشام على عهد بنى حمدان؛ أو إلى ملوك فرس بلغوا النهاية فى حذق العربيه وذوق أدبها، كما كان آل بويه وآل سامان؛ وشارك الشعراء العلماء فى علمهم، والملوك فى متعهم فجروا ينابيع الشعر وأدخلوا فيه من ناحية المعانى ما أوجده العلم وخلقته الفلسفة؛ كما أبدعوا فيه من ناحية الصياغة ما وشته الحضارة وحلته الصناعة؛ وكان ذلك على أيدى قادته الأوائل أمثال البحترى وأبى تمام وابن الرومى وابن المعتز والرضى والصابي ومهيار بالمشرق؛ وأبى الطيب وأبى فراس وأبي العلاء وتميم بن المعز بمصر والشام، وظهر ذلك أكثر ما ظهر فى شعر الثلاثة الذين انتهى اليهم فى هذه الناحية كل قديم وظهر على أيديهم فيها ما لم يبق غيره لجديد، وهم أنت تعرفهم من نعتهم أبو تمام والبحترى والمتنبي؛ أولئك الذين قال فيهم ابن الاثير الموصلى أحد أدباء العصر العباسى الاخير من كلام طويل « وقد اكتفيت فى هذا — أي فى الشعر الذى تكثر فوائده

وتتشعب مقاصده — بشعر أبى تمام حبيب بن أوس، وأبى عبادة الوليد البحترى، وأبى الطيب المتنبى، فهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزاه ومناته، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته، وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء » ، إلى أن قال بعد كلام طويل فى كل منهم من حيث تفضيله على سائر الشعراء غيرهم والموازنة بينه وبين صاحبيه، « وانى لم أعدل اليهم اتفاقا وانما عدلت اليهم نظرا واجتهادا ، وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك الا عرضته على نظرى، فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة، ولا أكثر استخراجا منه للطيف الاغراض والمقاصد، ولم أجد أحسن تهذيبا للالفاظ من أبى عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا منه ، فاخترت حينئذ دواوينهم لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والالفاظ، ولما حفظتها ألغيت ما سواها مع ما بقى على خاطرى من غيرها » .

بهذا الذى قدمنا لأنفسنا ، والذى ذكرنا بعده لابن الأثير، وبالذى عرفت عن العصر الذى نتكلم فيه، من أنه لم يكن عصر نهوض بالأدب ولا تشجيع للشعراء، تعلم أنه كان من العسير على شعرائه أن يبلغوا فى ناحية المعاني والأخيلة أكثر من المنزلة الوسط التى أحللناهم بها آنفا ، فيكون أغلب ما يقع لهم فيها من معنى جيد أو خيال رائع، مأخوذا من أولئك الشعراء المتقدمين ، لا يقفون فيه عند حد، ولا يخجلون إزاءه من ترديد ؛ ومن السهل عليك أن تظفر لهم فى الناحيتين

بكثير، خلال النماذج الثمانية عشر التى أثبتنا، وفى كثير من الشواهد التى استشهدنا بها فيما سبق من أغراض وفنون، فارجع إليهما وتلمس يطالعك الكثير. أما الابتداع للمعاني والابتكار للأخيلة من شعراء هذا العصر، فقد قلنا إنه وقع لبعضهم منه القليل، وما كان محالا عليهم كما زعم الزاعمون، لأن بابه مفتوح إلى يوم القيامة، مادام هنالك شعراء، ومادام الحجر على خواطرهم ليس فى مقدور إنسان، وإليك بعض أمثلة لهم فى هذا منتزعة من النماذج السالفة.

فمن ذلك استخدام ابن نباتة لاسمه هذا فى الشعر، كقوله فى آخر مدحة للملك الناصر :

أحقـــا أرانى فى ثرى عتباته   نباتا يحيي واكف المزن بالزهر

وكقوله من أخرى فى محيي الدين بن فضل الله :

هذا نباتي لفظ يشتكى عطشا   لعل أفقك بالأنواء يسقيه

ومنه قوله فى رثاء صغير مات غرقا :

وغصن علم فى ربا سؤدد   قد مات بالماء خلاف الغصون

وقوله فى استدامته الشراب :

لا ينزل الدهر من يدى قدحا   كأننى صورة على قـــدح

وقوله فى التعليل لشيبه على صغره محسنا التخيل :

من يعم فى بحـــار همى يظهر   زبد فوق فرعـــه الغريب
أو يحارب حوادث الدهر يخفى   لون فوديه فى غبـــار الحروب

وقوله فى الساقية يرجع نوحها إلى أنها كانت فرعا ينوح عليه الحمام :

تعلمت نوح الحمام المهتف | أيام كانت ذات فرع أهيف

ومنه قول ابن مليك الحموى من آخر قصيدة له فى مدح ولى الدين ابن فرفور: يعنى هذه القصيدة:

تخذها عروسا بالمعانى بديعة | مكملة الأوصاف غانية عذرا
مخـــدرة عنها أميط قناعها | فأسبل عليها من حلى الرضا سترا
وألق نثار الدر عند زفافها | عليها وزد فى النقد وابذل لها المهرا

ومنه قول الصفدى فى خدمة النسيم للنهر:

النهر مولى والنسيم خديمه | هذا كلام لست فيه أشكك
لولم يكن فى خدمة النهر انبرى | ما كان يصقل ثوبه ويفرك

وقوله فى طاعون سنة ٧٤٩

لا تثق بالحياة طرفة عين | فى زمان طاعونه مستطير
فكأن القبور شعلة شمع | والبرايا لها فراش تطير

ومنه قول المقريزى فى مرج البحرين بدمياط

وفى مرج البحرين جم عجائب | تلوح وتبدو من قريب ومن بعد
كأن التقاء النيل بالبحر إذ غدا | مليكان سارا فى الجحافل من جند
وقد نزلا للحرب واحتدم اللقا | ولا طعن إلا بالمثقفة الملد
فظلا كما باتا وما برحا كما | هما من جليل الخطب فى أعظم الجهد

وقوله فى التفاف النيل حول جزيرة الروضة

ووافى إليها النيل من بعد غاية | كما زار مشغوف يروم وصالا
وعانقها من فرط شوق لحسنها | فمد يمينا نحوها وشمالا

ومنه قول شهاب الدين بن فضل الله فى الليل وقد انقادت له الجوزاء :

واقتادت الجوزاء لا ... يل البهيم إلى الرواح

فكأنه زنجية ... حزمت بأطراف الوشاح

ومنه قول البوصيرى فى بناء المدرسة المنصورية

بناء كأن النحل هندس شكله ... ولانت له كالشمع فيه صخور

ومنه قول زين الدين عمر بن حلاوات فى قسوة بكتمر الحاجب بصفد ، ولا داعى لاعادة إثباته لطوله ؛ وفيه وفيما ذكرنا مناح لأبداع المعانى وابتكار الخيال ، أما التوليد فى المعانى فأنت تراه واضحاً أشد الوضوح فيما سلف بالنماذج لشهاب المنصورى من التشبيهات المتلاحقة فى الأهرام ، وفيما جاء بعده فيها لفخر الدين بن عبد الوهاب المصرى ؛ حيث حاول أن يكشف سر بنائها فى سبعة أبيات كان آخرها

فى قلب رائيها ليعلم نقشها ... فكر يعض عليه طرف بنانه

وكذلك ما وقع لبعض الشعراء من وصف الخبز حين عز وتشحط بالقاهرة وغلا سعره سنة ٧٥٠ فى مقطعته التى كان آخرها

إن دام هذا السعر فاعلم أنه ... لا حبة تبقى ولا معيار

وعلى ذكر الغلاء نقول ، ومما نحن فيه هنا من ذكر إبداع المعانى وابتكار الأخيلة ما سبق لبعض الشعراء فى هجو ابن زهر الطبيب حين تغالى فى الأجر أيام غلاء وهو .

قل للغلا أنت وابن زهر ... بلغتما الحد والنهايه

ترفقا بالورى قليلا ... فى واحد منكما كفايه

ثالثا — ناحية الألفاظ والأساليب

جاءت هذه الناحية أبرز النواحى الثلاث لشعراء هذا العصر كما أسلفنا، ذلك بأن عصرهم لم يحل الا حيث كان القاضى الفاضل قد عبد طريقته فى الصناعة الزخرفية، وألم إلماما كثيرا بمحسنات البديع من لفظية ومعنوية. ففتن بأسلوبه فى إنشائه وبعض شعره رجال عصره من كتاب وشعراء، وأقبلوا يحاكونه فيها محاكاة المخلصين لها المغرمين بها، وكان أشد الشعراء له محاكاة شاعر ظهر مع دولة المماليك الاتراك وعاش معها كل عصرها، هو ابن نباتة المصرى، الذى جلى أمام شعراء عصره ومن جاء بعدهم على عهد المماليك الشراكسة فى هذا الميدان، حتى فاق الفاضل وأضحى شعره من هؤلاء جميعا محل الأسوة والاقتداء، فكانت هذه الناحية كما قلنا عن شعرهم أبرز النواحى الثلاث فيه، استمع الى ابن حجة يقول عن هذه الصناعة اللفظية عامة وعن مكانة ابن نباتة فيها خاصة فى خزانة أدبه: وهو رأى الحاذق فيها الاريب، قال « فان ابن نباتة وإن تأخر فى السبق عن فحول المتقدمين عصرا، فقد تقدم عليهم ببديعه وغريبه بيانا وسحرا، وتفقه فى الطريقة الفاضلية لمذاهب ما سلكها المتقدمون وها نحن نستجدى من حواصلها نظما ونثرا، وكم سأله عالم فى سلوك هذه الطريقة. فقال ان تستطيع معى صبرا، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا، وإن قيل إن الفاضل مذهب بهذا المذهب فذهبى — وأنا أستغفر الله — أن ابن نباتة وصل فيه الى درجة الاجتهاد، وهذا القول يقول به من رفع الخلاف وتأدب،

فان هذه الطريقة ما أمها ناظم ولا ناثر فى الايام الاموية؛ ولا ابتسمت ثغورها إلا فى الخلافة العباسية ، ولما انتهت الغاية الى الفاضل أتى بهذه الفضيلة الغريبة وأظهر منها الزيادة المستفادة؛ واعتادها بلغاء المتأخرين بعد ما شهدوا بسبقه فأكرم بها عادة وشهادة ، ولما اتصلت بالشيخ جمال الدين بن نباتة أهل غربتها ؛ وشرف بأصل شجرته النباتية نسبتها ، وأسكن فى أبياته من بديع النظم كل قرينة صالحة؛ وأمست سواجع إنشائها على فروعه النباتية صادحة » .

وهذا بعض ما أثر عنهم فيها مع ذكر نوعه من البديع .

١ — الجناس : شاع الجناس فى شعرهم على تعدد أنواعه شيوعا كبيرا ، كقول ابن نباتة

أبكيك للحسنين الخلق والخلق
كما بكى الروض صوب العارض الغدق
تبكيك رقة لفظى فى مهارقها
ياغصن فاسمع بكاء الورق فى الورق

وقول التلعفرى

لو كمثل الذى أجن أجنا   من غرام لما جنى وتجنى

وقول الشهاب المنصورى

فسقى تربها الرباب لتهتز وتربو على سماع الرباب

وقوله يداعب محب الدين الحلبى وكان صبا بالصبيان

فى ملاح لك شتى   صيف القلب وشتى
كم ليال مع مليح   يا محب الدين بتا

خده بستان حسن حبذا البستان بستا
أنت بالصبيان صب لو رأيت البنت بنتا

وقول بن ملياك الحموى

بعيشك دع ما قد مضى يا بن يوسفا فما فات لن يؤسى عليه ويوسفا

وقول ابن دانيال فى برذونه

أسير مثل أسير وهو يعرج بى كأنه ماشيا ينحط من درج
فان رمانى على مافيه من عرج فما عليه إذا ما مت من حرج

وقول ابن اللبانة

هلا ثناك على قلب مشفق لترى فراشا فى فراش يحرق

وقول البوصيرى

ومدرسة ود الخورنق أنه لديها حظير والسدير غدير

٢ — التورية — أفاضوا فيها وأحسنوا التمهيد لها ، كقول ابن نباتة :

لقد أصبحت ذا عمر عجيب أقضى فيه بالأنكاد وقتى
من الأولاد خمس حول أم فواحرباه من خمس وست

وقوله

فالشافعى لو استجلى صحائفه فدى بأمين نحواها وآباء

وقول التلعفرى فى الخمر

عجوز قد أسنت وهى بكر ومن عجب عجوز وهى بكر

وقول ابن مليك

لنحوك قد أضحى التفاتي لأننى وحقك لا زيدا أروم ولا عمرا

وقول الشهاب المنصورى لمحيى الدين الكافيجى وقد أضافه فى خلوته على حلاوة قرع

يا عين أعيان الزمان ويا محيى بمصر سنة الشرع
لم يقرع الباب امرؤ نحوكم إلا وذاق حلاوة القرع

وقول ابن دنيال

دعوتنى للعرس ياسيدى فكدت أن أحضر من أمس
وهأنا الليلة فى داركم فالكلب مايهرب من عرس

وكالتورية حسن الاستخدام وقد ألموا به كقول ابن نباتة

إذا لم تفض عين العقيق فلارأت منازله بالقرب تبهى وتبهر
وإن لم تواصل عادة السفح مهجتى فلا عادها عيش بمغناه أخضر

٣ — حسن التعليل — لقد أبدعوا فى حسن التعليل وأكثروا منه، كقول ابن نباتة يعلل لمشيبه فى شبابه

من يعم فى بحار همى يظهر زبد فوق فرعه الغربيب
أو يحارب حوادث الدهر يخفى لون فوديه فى غبار الحروب

وقول الصفدى فى النسيم

لو لم يكن فى خدمة النهر انبرى ماكان يصقل ثوبه ويفرك

وقول المقريزى فى إحاطة النيل بجزيرة الروضة

وعانقها من فرط شوق لحسنها فمد يمينا نحوها وشمالا

وقول بهاء الدين السبكى حين سقطت المنارة الثالثة لجامع السلطان حسن، قبل بناء الرابعة، ولهجت عامة مصر بأن ذلك منذر بزوال الدولة .

أبشر فسعدك ياسلطان مصر أتي بشيره بمقال سار كالمثل
إن المنارة لم تسقط لمنقصة لكن لسر خفي قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت فالوجد فى الحال أداها إلى الميل
لو أنزل الله قرآنا على جبل تصدعت رأسه من شدة الوجل
تلك الحجارة لم تنقض بل هبطت من خشية الله لا للضعف والخلل
وغاب سلطانها فاستوحشت ورمت بنفسها لجوى فى القلب مشتعل
فالحمد لله حظ العين زال بما قد كان قدره الرحمن فى الأزل

ومثل ذلك قول شمس الدين الجوجرى وقد مالت منارة جامع المؤيد المقامة على باب زويلة، وكتب المهندسون محضرا بهدمها

منارة لثواب الله قد بنيت فكيف هدت فقالوا نوضح الخبرا
أصابت العين أحجارا بها انفلقت ونظرة العين قالوا تفلق الحجرا

وقول شمس الدين القادرى حين احترق المسجد النبوى بالمدينة من صاعقة، سنة ٨٨٦

بطيبة سيئات الركب بدلها رب العلا حسنات عندما زاروا
وعندما قبلت ضاهت لدى حرم ا مختار من أكلت قربانه النار

٤ — مراعاة النظير — وكان لهم بمراعاة النظير غرام كقوله ابن نباتة

يامنعشى حيث شخصى فى دمشق وفى تفليس مالى ودمع العين فى حلب

وقوله:

فلهفى على آرائه البيض أحوجت إليها الرماح السمر والعذب الصفر
ولهفى على أقلامه السود أوحشت إليها السيوف الحمر والنعم الخضر

وقوله فيه حول مصطلحات العلوم ، وهو يعدد ما لممدوحه من صفات .

وإيضاح رأى بنحو العلا قضاياه كافيـــة شافيه

وقول الشهاب المنصورى يخاطب الدرهم والدينار

آه يادرهمى ويـادينارى ضعت بين الطبيب والعطار

كنت أنسى فى وحدتي وشفائي فى سقامى وصحتى فى انكسارى

وقول ابن مليك يدعو لمن وصفه فى آخر قصيد

ودمت مديد العمر بالبسط كاملا زمانا طويلا ليس يقضى له حصر

سريع الوفا يابحر ما أينعت ربا وجاد لها سكبا بمرسله القطر

وقد أحسنوا مع مراعاة النظير الطباق والمقابلة وهما من واديه كما قال ابن نباتة

هناء محـــا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

ثغور ابتسام فى ثغور مدامع شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما

نرد مجارى الدمع والبشر واضح كوابل غيث فى ضحى الشمس قدهمى

وكقول التلعفرى

يامعير الغزال والغصن لحظا وقواما اذا رنـــا وتثنى

ومعير الدر المنظم ثغرا وحديثا والبـــدر نورا وحسنا

وقول ابن مليك

أستودع الله أحبـابا رزئت بهم بانوا وكانوا مكان السمع والبصر

كأنما كانت الدنيـــا هم وبها مرءاهم حين كانوا مشرع النظر

تباً لها دار حزن لاتسيغ هنا   لشارب وتشوب الصفو بالكدر
ماأضحكت بالهنا يوماً خاطرب   إلا وأبكته فى أيـامه الأخر

٥ — اللف والنشر — قد أجادوه مرتباً وغير مرتب، كما قال ابن نباتة فى الأول

فأيامك الأعيـــاد عائدة لمن   رجاك ومن عاداك بالفطر والنحر

وكما قال فى الثاني

أعدت زمان البشر والجود والثنا   إلى أن ملأت العين والأنف والفما

وقال التلعفرى

صاح شم برق برقة إن تراه   وحمـــام الحمى اذا ماتغنى
لزفيرى شواظ ذلك إن لا   ح ونوحى ترجيع ذاحين حنا
كلما ناح ذا ولاح مجدا   ذاك وهنا شكت ضلوعى وهنا

وكما أبدعوا فى اللف والنشر أبدعوا فى التقسيم، كقول التلعفرى المذكور، وكقول ابن نباتة

فملك بلا جور وحكم بلا هوى   وأزر بلا ورز وعز بلا كبر
قضا عمر فى حلم عثمان جامعاً   لبأس على فى سماح أبن بكر

٦ — تأكيد المدح بما يشبه الذم — أحسنوا صياغته وأجادوا فيه كقول ابن نباتة

يبيع ولـكن بالكلام نفائساً   من المال يلقاها غدا جمة الوفر
ويبتاع لـكن بالنفيس غواليا   من الحمد إلا أنه عاطر النشر

وقول التلعفرى

قال الجمال تأمل ذا وذا وقس خد متى قلت إن الورد يشبهه

٧ — حسن التخلص — وقد أحسنوا التخلص، كما أجادوا براعة الاستهلال وبراعة الختام ، قال ابن نباتة محسنا التخلص من الغزل الى مدح محيى الدين بن فضل الله

وصل تكنف روحى بعدما جهدت كما تكنف دين الله محييه

وقال فى براعة الاستهلال يهنىء الافضل بالولاية مكان أبيه المؤيد

هناء محا ذاك العزاء المقدما فما عبس المحزون حتى تبسما

وقال فى براعة الختام لمرثيته فى ابنه عبد الرحيم

قد أخلقت جسدى أيدى الأسى فمتى

للأرض ترمى بهذا الملبس الخلق

وقال الشهاب المنصورى فى حسن المطلع من رثاء الشهاب الحجازى :

لهف قلبى على أفول الشهاب تحفة القوم نزهة الأصحاب

وقال التلعفرى متخلصا من شكوى فراق حبيب إلى المدح

الليالى عندى ظلام وظلم بعد ذاك اللمى وذاك الظلم

جملة الأمر أن لى بعده دمعا كجدواك فى انسكاب وسجم

وقال ابن مليك فى براعة الختام لقصيدته فى تهنئة ابن فرفور بمنصب القضاء عقب وفاة أبيه عنه

فلا زال نجم السعـــــد نحوك ناظراً

وطالعـك الميمون يسمو على الشعرى

وقصر عن عليــــاك كل مماثل

وطول رب العـــالمين لك العمرا

٨ — الاكتفاء. افتنوا فى الاكتفاء افتنانا كبيرا فجاءوا فيه بحذف حرف كالميم من كلمة عام فى قول ابن نباتة

غدت كل عام لى إليه وفادة فياحبذا من أجل لقياه كل عا

وبحذف حرفين كالفاء والراء من كلمة كافر فى قول أبى النجا القمى

لما ادعيت فسقا للفـــارضى يا كا

وبحذف كلمة كالكهولة مثلا فى قول ابن نباتة

شيم عن السلف الزكى ورثتها لافى الصبا عيبت على ولافى

وبحذف جملة هى كان فى قوله

إذا الأفضل الملك اعتبرت مقامه وجدت زمان الملك قد عاد مثلما

ومن الاكتفاء أيضا قول شمس الدين النواجى فى حذف النون من آخر هذين البيتين

خليلى هـذا ربع عزة فاسعيا إليه وإن سالت به أدمعى طوفا

فجفنى جفا طيب المنـام وجفنها جفانى فيالله من شرك الأجفا

ومثله قوله

ياضيف بيت الله نلت المنى منذ تحصنت بأم القرا

لب بحـج واعتمار وقل لله ما أسعد هـذا القرا

ومن الاكتفاء بحذف حرفين من اسم النواجى قول الشهاب المنصورى فى رثائه

رحم الله النواجى فقد ... فقد الدنيا وأبقى ماروى
وانطوى فى شقة البين فيا ... حسرة العشاق من بعد النوا

٩ – الألغاز – وكانت لهم قدرة عليه وحسن تصرف فيه، كقول ابن نباتة ملغزا فى مليح اسمه بهرام .

رب مليح بأسه فاتك ... فى الصحب حتى كلهم قد عجب
يرهب قلب الليث يوم الوغى ... وهو غزال قلبه ما رهب

وقول النواجى ملغزا فى اسم سعيد

ما اسم لعبد إن تزل عينه ... يعود فى الحال لنا سيدا
عليه فرض الصوم لكنه ... إذا مضى الربع له عيدا

وكثيرا ما كان يسأل الشاعر ملغزا فيجيبه الآخر بلغز حال للغز كما فعل ناصر الدين التنيسى حين كتب النصير الحمامى إليه ملغزا فى كلمة ياسمين

يامن يحل اللغز فى ساعة ... كلمحة من طرفة العين
ما اسم إذا نقصت من عده ... فى الخط حرفا صار اسمين

فأجابه الحمامى ملغزا أيضا

لعرض مولانا وأنفاسه ... ألغزت لى حقا بلا مين
اسم سداسى لطيف به ... نحافة تظهر للعين
لكنه يغدو سمينا إذا ... أسقطت من أولاه حرفين

١٠ – التضمين والأجابة – أما التضمين فكان يقع منهم لعجز البيت،

كما قال ابن نباتة فى رثاء تقى الدين السبكى

قالت دمشق بدمع النهر واخبرا «فزعت فيه بآمالى إلى الكذب»

حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا «شرقت بالدمع حتى كان يشرق بى»

وكلمتنا سيوف الكتب قائلة «ما السيف أصدق أنباء من الكتب»

وكما قال شهاب الدين بن عبد الدائم لبيبرس الجاشنكير

فقل لبيبرس إن الدهر ألبسه «أثواب عارية فى طولها قصر»

وكما قال فخر الدين بن عبد الوهاب المصرى يخاطب الاهرام

أذكرتنى قولا تقادم عهده «أين الذى الهرمان من بنيانه»

وكان يقع للبيت كله كقول ابن نباتة أيضا

وناعورة كانت قضيبا فأصبحت إلى القضب شوقا كالحمامة تسجع

شكوت لها حر الغرام وحالها كحالى بكاء أو حنينا يرجع

«ولا بد من شكوى الى ذى مروءة يواسيك أو يسليك أو يتوجع»

وكثيرا ما كان الشاعر ان يتعاور ان أشطار قصيدة على سبيل التضمين،

كما فعل صلاح الدين الصفدى حين كتب إلى ابن نباتة يقول

أفى كل يوم منك عتب يسوءنى كجلمود صخر حطه السيل من عل

وترمى على طول المدى متجنيا بسهميك فى أعشار قلب مقتل

فأمسى بليل طال جنح ظلامه على بأنواع الهموم ليبتلى

إلى أن قال بعد إطالة من أخذ أشطار «قفا نبك»

فكر على جيش الجناية عائدا بمنجرد قيد الاوابد هيكل

وخل الجفا وارجع الى معهد الوفا وان كنت قد أزمعت صرمى فأجمل

حلاودك الماضى وإن لم تعد أعد لدى سمرات الحى ناقف حنظل

فأجابه ابن نباتة بقوله

فطمت ولائى ثم أقبلت عاتبا أفاطم مهلا بعض هذا التدلل

بروحى ألفاظ تعرض عتبها تعرض أثناء الوشاح المفصل

فأحيين ودا كان كالرسم عافيا بسقط اللوى بين الدخول فحومل

إلى أن قال بعد إطالة أيضا :

أعدت صلاح الدين عهد مودة بكل مغار الفتل شدت بيذبل

فدونك عتبي اللفظ ليس بفاحش إذا هى نصته ولا بمعطل

وعادات حب هن أشهر فيك من قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل

وأما الأجابة فكانت تقع أحيانا على طريق التضمين كما سبق ، وأحيانا ترد عن طريق الاجازة ، أو على سبيل المعارضة ؛ فمن الأولى ما أجاز به ابن نباتة شمس الدين بن سمنديار حين سأله إجازة قوله

عرفت بخدام البكا أجفانه إن غاب لؤلؤه أتى مرجانه

فقال :

باك يرى كتم الغرام وإنما عن شانه أضحى يعبر شانه

حث التفرق دمعه فتشكلت أشكاله وتلونت ألوانه

شوقا كما حكم الفراق لمالك ولى ولكن عنده نيرانه

ومن الثانية ما تقدم بالنماذج للتلعفرى إجابة لصديقه «عز الدين بن أمسينا» حين سأله عن حاله بعد فراق غلامه نجم ، والمقطعة التى سأل بها عز الدين هى

ياخليـــلى حدثانى بعلم كيف حال الشهاب بعد النجم
واقصصا لى حديثه فلقـد قـ ل اصطبارى وزاد فكرى وهمى
فمن المستحيل بعد رواح الر وح عنـد الورى بقاء الجسم
ثم قولا له مقـــال أخ بر شفيق حليف ظن ووهم
ياشهابا أنوار بهجته الغرا ء تجلو عنا دياجى الظــــلم
إن تناءى فلا أقل من الأ لمام شوقا الى الديار برسم
فاصرف الهم عن فؤادك إن أمـ ـكن تصريفه بأبنـة كرم

١١ — التخميس والتوشيح — وهذان فنان من الصناعة اللفظية كثرا على أيدى شعراء هذا العصر

فمن التخميس — وهو ذكر أشطار ثلاثة قبل البيت من قافية ضربه — قول ابن مليك فى أبيات الوأواء الدمشقى

ياصاحبى نأى من كان فى وطنى إليه أسكن فى سرى وفى علنى
فان تيممتما أرضا بها شجنى بالله ربكما عوجا على سكنى
وعاتباه لعل العتب يعطفه

وعرفاه بتنكير الهوى بكما وأظهراه على خافى نحولكما
فان تـألم إشفاقا لحالكما فعرضا بى وقولا فى حديثكما
مابال عبدك بالهجران تتلفه

وخبراه بأنى فى مجاهدة واستعطفاه بقول فى مماجنة
وحادثاه حديثا فى ممازحة فان تبسم قولا فى ملاطفة
ماضرلو بوصال منك تسعفه

وإن يقل فيكما هذا له حسب قولا نعم ولنا أيضا به نسب

إن يرضه ماتقولا فهو لى أرب وإن بدا لكما فى وجهه غضب

فغالطاه وقولا ليس نعرفه

ومن التوشيح - وهو كثير الأوزان وأشيعه مابنى فيه البيتان على بيت - كالموشحة السابقة للتلعفرى إجابة عن موشحة كانت للشهاب العمادى اليه . وهذه هى موشحة العمادى

بات طرفى يتشكى الأرقا وتوالت أدمعى لاترتقى

ليت أيامى ببانات اللوى غفلت عنها لييلات النوى

عاذلاتي باعتلاقى بالهوى كيف سلوانى وقلبي والجوى

أقسمانى الحب لن يفترقا وجفوني أقسمت لاتلتقى

ولقد همت بذى قد نضر قامة البانة منه تنهصر

ذى رضاب بارد الظلم خصر فى فؤادى منه نار تستعر

رشأ قلبي به قد علقا جل من صوره من علق

مال عن سالفه المسك فنم وشذا المسك أبى أن يكتتم

شمسا وغصنا وهلالا قد رسم مذ تبدى وتثنى وابتسم

خلته بدرا على غصن نقا باسما عن أنفس الدر نقى

ساد بالدل وفرط الخفر سانحات الظبيات العفر

مثل مافاق فتى التلعفرى قالة الشعر بوشى الحبر

أريحى خص لما خلقا بسخا النفس وحسن الخلق

شيمة أصفى من الراح الشمول همة أوفت على العلياء طول

نبعة جرت على النجم الذيول | دوحة طابت فروعا وأصول
سح جودا فى ذراها ورقا | فكساها يانعات الورق
شاعر فاق فحول الشعرا | بقواف مثل إطراق الكرا
باسمات يجتلى منها الورى | ثغرا يبسم أو زهرا يرى
كلما لاح سناها مشرقا | سجد الغرب لنور المشرق
أيها الموفى على عهد الزمن | كرما محضا وفضلا ومنن
حاكها الخادم من غير ثمن | جالب الوشى لصنعاء اليمن
فاستمعها زادك الله بقا | مدحة لم يحكها ابن نقى

١٢ — وأخيرا كانت لهم أراجيز وبخاصة فى الطرد والصيد.

ومن أمتعها أرجوزة ابن نباتة التى سماها «مصايد الشوارد» وهى فى أكثر من مائة وستين بيتا. قال من مبدئها فى وصف الربيع بوادى حماة وأرضه ذات النواعير.

أثنى شذا الروض على فضل السحب | واشتملت بالوشى أرداف الكثب
ما بين نور مسفر اللثام | وزهر يضحك فى الأكمام
إن كانت الأرض لها ذخائر | فهى لعمرى هذه الأزاهر
قد بسطتها راحة الغمائم | بسط الدنانير على الدراهم
أحسن بوجه الزمن الوسيم | تعرف فيه نضرة النعيم
وحبذا وادى حماة الرحب | حيث زها العيش به والعشب
أرض السناء والهناء والمرح | والأمن واليمن ورايات الفرح
ذات النواعير سقاة الترب | وأمهات عصفه والأب

تعاطت نوح الحمام الهتف　　أيام كانت ذات فرع أهيف
فبكاها من الحنين قلب　　لاسيما والماء فيه صب

إلى أن قال يصف الخروج إلى ذلك الوادى للصيد

لما دنا زمان رمى البندق　　سرنا على وجه السرور المشرق
فى عصبة عادلة فى الحكم　　وغلمة مثل بدور التم
من كل مبعوث إلى الأطيار　　تظله غمامة الغبار
وكل معسول الشباب أغيد　　منعطف عطف القضيب الاملد
لولا حذار القوس فى يديه　　لغنت الورق على عطفيه

وهكذا أخذ يصف — بعد أن فرغ من وصف الصائدين — أدوات الصيد على اختلاف أنواعها، وألوان المصيدات على اختلاف أجناسها، حتى تخلص فى أواخر ذلك العدد الوافر من الأبيات الى مدح المنصور صاحب حماة فقال

نسير حول الملك المنصور　　كالشهب حول القمر المنير
محمد ناصر دين أحمد　　الملك ابن الملك المؤيد
قال الأنام حظه جلى　　قلت نعم وجده على
غنيت فى ظلاله عن الورى　　غنى نزول المزن عن قصد القرى
ورحت عن نعماه بالتواتر　　أروى أحاديث عطا وجابر
معتصما بالكرم المؤيد　　مصلى الحمد على محمد
قديم قصد وثناء وهوى　　ماضل سعيى فيهما ولا غوى
يزيد لفظى بهجة ورونقا　　كأنه الخمر إذا تعتقا
حسبك منى فى الثناء شاعرا　　وحسب شعرى قوة وناصرا

وبعد فقد كانت للزجل فى هذا العصر دولة بكثرة رجاله ، وطول قصيده ، وتنوع موضوعاته . وأشهر زجالى دولة المماليك الأتراك ، القيم خلف الغباري ؛ من أيام الأشرف شعبان إلى الظاهر برقوق ، وله فيهما أزجال كثيرة بالصفحات ٢١٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٠٧ من تاريخ ابن إياس جزء أول . أما أشهر زجالى المماليك الشراكسة ، فهو بدر الدين محمد بن الزيتونى ، أيام الأشرف قايتباى ؛ وله أزجال كثيرة تجد أطولها بصفحتى ٢٩٨ ، ٣٥٨ من تاريخ ابن أياس جزء ثان .

هذا وقد كان الزجل فى عصر المماليك أعلق بحوادثه من الشعر ، ولعل ذلك لسهولة فهمه وفهم العامة له .

ملاحظة

ضاق الوقت عن المقال الذى كان منوى الكتابة عن العصر العثماني ، ليصوره عصر انحطاط ثقافى ، فى الناحيتين العلمية والأدبية ، وسيكون إن شاء الله فى الطبعة الثانيه .

السباعى بيومى

الفهـــــــــــرس

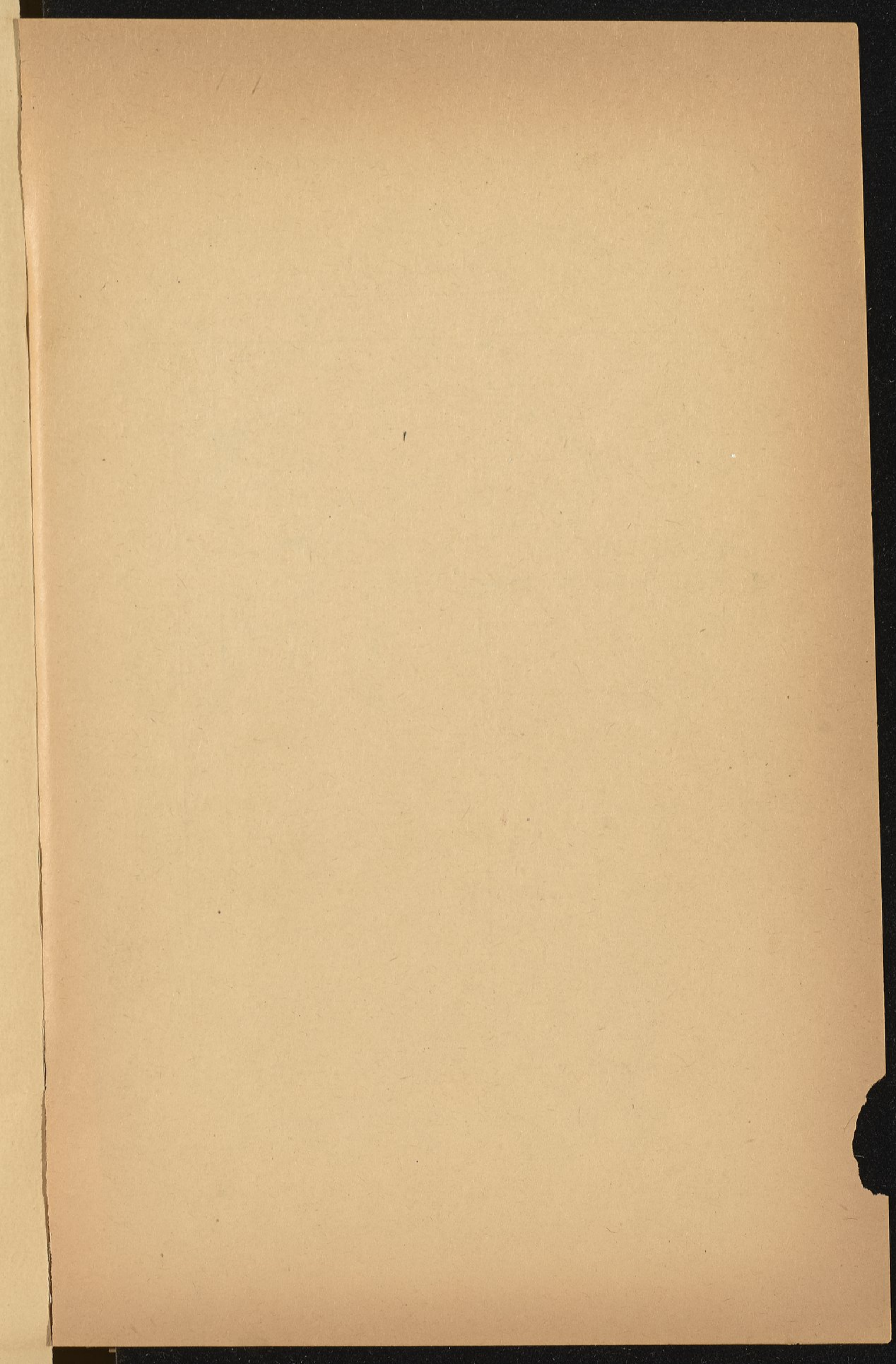
الحياة الثقافية

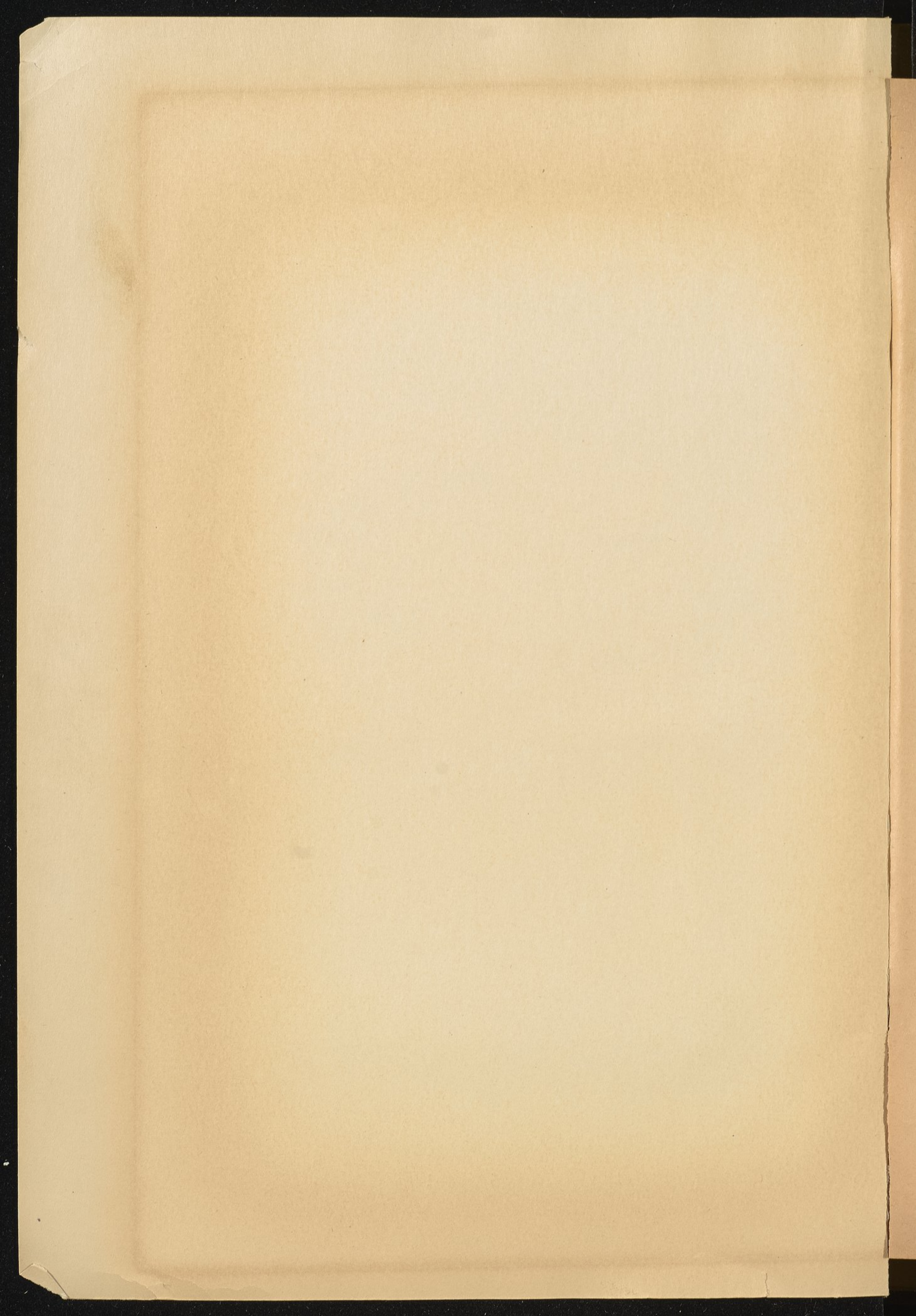
الثقافة الأدبيه

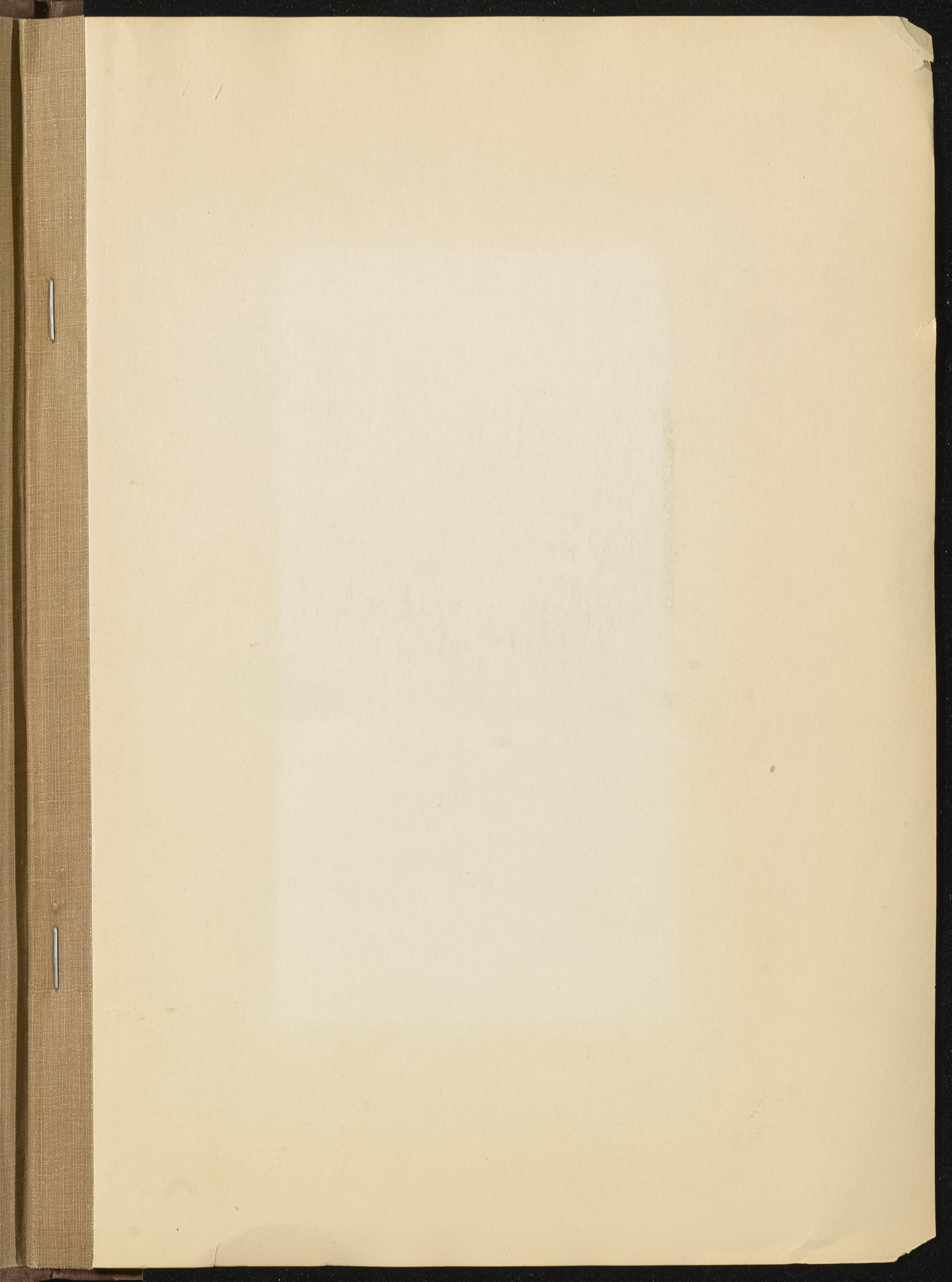
انتهى .

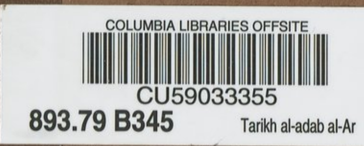
الخطأ والصواب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٥	٣	القرن الثالث	القرن والثلث
١٦	٢٠	بعد	قبل
١٦	٢١	بثلاثة أرباع	بربع
٢٤	١٩	العصر الايوبى	العصرين الفاطمى والايوبى .
٣١	٩	قليلى العهد	قليلى العدد
٣٨	١	الاربع	الثلاث
٣٨	١٧	على العهد الفاطمى	على العهدين الفاطمى والايوبى
٣٨	١٨	الفاطمى باقى	الفاطمى والمزيدفيها بالأيوبى، باقى
٣٩	١٢	غير هذه	غير هاتين
٥٩	١٤	مع رسالتى	غير رسالتى
٦٥	٤	كتاب المؤلفين	كبار المؤلفين
٦٩	٤	بنى	بين
٧١	٧	وعلمت	وعملت
٨٣	١٤	برقه	برقة
٨٣	٢٠	قيس وقس	قيس وقيس
٨٨	٨	فهداهم	فهداهما
٩٠	١٨	والنظر	والبصر
١١٩	١	فانة	فأنه
١٢٦	١٠	سار	سارا
١٢٦	١١	ها	هما
١٣٢	٨	وهى	ثم
١٣٥	٣	فضل موصوف	فضل غير موصوف








COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU59033355
893.79 B345
Tarikh al-adab al-Ar